

ادرك المغول خلال توجههم نحو بغداد ان الخلافة العباسية اصبحت لمفردها وان جميع مؤيديه من الدول المجاورة مشتغلين في صراعاتهم الداخلية ، وان المغول كانوا قد اختبروا القوى الاسلامية في المنطقة بحملاتهم السابقة على الاراضي الاسلامية بين الحين والآخر أو عن طريق حملاتهم من الجواسيس الذين لعبوا دورا كبيرا في استمالة بعض الحكام المسلمين بالترغيب أو الترهيب في بغداد، وكان الوزير ابن العلقمي يكاتب المغول سرأ ويحثهم على غزو العراق والاستيلاء على بغداد وفي الموصل كان بدر الدين لؤلؤ قد امد المغول بالجنود والمعدات القتالية، أما الاوضاع في مصر كانت في صراع على السلطة لاسيما بعد موت الصالح ايوب سنة ١٢٤٩ ، وفي الشام كان الناصر يوسف الايوبي على علاقة مع المغول وقد ارسل الهدايا والسفارات الى هولاءكو وسعيه ايضا للتحالف مع لويس التاسع عشر أثناء اقامته في عكا بعد رحيله من مصر.

وقد تضافرت عوامل داخلية كانت سبب في سقوط الخلافة العباسية في اواخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله وقد ساعدت المغول على تحقيق اهدافهم ومن تلك العوامل:

- ١- ضعف الخلفاء وسوء الادارة وتنافس كبار رجال الدولة على السلطة.
- ٢- اهمال الخليفة المستعصم بالله اخر الخلفاء العباسيين للدولة وعدم الانفاق على تقوية الجيش ولم يتخذ اجراءات لمواجهة الزحف المغولي.
- ٣- سوء الاوضاع الاقتصادية وفي مقدمتها الخراج المرهق المفروض على الاراضي الزراعية وكساد الحياة الزراعية والصناعية وبزوغ الفوارق الطبقيية بين افراد المجتمع وقد ساهمت الحروب المتواصلة على نقص الايدي العاملة، فغدت المزارع مهجورة فضلا عن الفيضانات التي عصفت في سهول العراق الجنوبية.

وفي سنة ١٢٥٦ أعلن هولاءكو قيام دولة المغول في ايران عرفت بالدولة (الايلخانية) أي نواب الخان الاعظم في قره قوم عاصمة الامبراطورية المغولية.

وعندما وصل هولاءكو الى ايران ارسل الى جميع حكام البلاد الاسلامية ومنهم الخليفة العباسي المستعصم بالله يطلب منهم مده بالمال والسلاح لكي يتمكن من اخضاع القلاع الاسماعيلية الحشيشية ، وعندما اتجه هولاءكو بجيشه ووصله الى قلعة الموت شدد عليها الحصار فاضطر زعيم قلاع الاسماعيلية (ركن الدين خورشاه) بالذهاب الى خيمة هولاءكو معلناً الخضوع والاستسلام وتم نفيه حتى موته فتمكن هولاءكو من السيطرة على كافة القلاع الاسماعيلية التي كانت مهذا للزحف نحو بغداد، وقد اتجه هولاءكو نحو همدان بعد أن أخضع القلاع الاسماعيلية فوصلها سنة ١٢٥٧ بهدف مهاجمة العراق، بعد ان تلقى تقارير عن حملاته في بغداد والمدن الاخرى للوقوف على حقيقة الامر قبل الهجوم الكبير، فوجد أن مسرح الاحداث مهياً تماماً للفائد المغولي لكي يضرب الخلافة العباسية، بعد أن اصبحت المناطق الايرانية خاضعة تماماً للمغول، وكان الخليفة العباسي المستعصم بالله ضعيف وغير مدرك

لحجامة الخطر المغولي ،كانت بغداد غارقة في الفوضى وازدادت الامور سوءاً واضطر عند اقتراب هولاکو من بغداد.

أرسل هولاکو رسالة تهديد الى الخليفة المستعصم بالله سنة ١٢٥٧ يدعوه فيها الى تقويض حصون بغداد واسوارها وان يسلم المدينة وأن يحضر نفسه فكانت رسالة احتجاج لعد امتثال الخليفة المستعصم بالله لرسالته السابقة وارسال المساعدات التي طلبها هولاکو أثناء محاصرة القلاع الاسماعيلية.

رد عليه الخليفة المستعصم برسالة تحمل النصيحة واللين يطلب فيها من هولاکو العودة الى خراسان ويعدده بأن الخليفة قادر على حشد الالاف من المقاتلين ساعة القتال وكان هدف الخليفة تخويف هولاکو، وكان الموقف قد ازداد حرجاً عندما قام اهالي بغداد بإهانة رسل هولاکو وتمزيق ملابسهم والبصق في وجوههم ، الامر الذي لم يترك مجال للمفاوضات.

وعندما اقترب الخطر المغولي من بغداد ازدادت حدة الخلافات في بلاط الخليفة بين كبار مستشاريه فأشار الوزير العلقمي بأرسال الهدايا والاموال الى هولاکو وان تكون الخطبة والسكة باسمه في حين رفض الدويدار الصغير مجاهد الدين أبيك مقترح العلقمي وأصر على ضرورة التحدي للقوات المغولية، وقد ارسل الخليفة المستعصم بالله سفيره ابن الجوزي حاملاً رسالة الى القائد المغولي تفيض بالوعود وتطلب منه العودة والتراجع عن موقفه وان الخليفة سيوعده بأنه سيبعث كل ما يطلبه المغول من اموال، الا ان القائد المغولي ادرك ظناً منه بأن الخليفة يريد كسب الوقت ليتمكن من تنظيم قواته.

كانت قوات هولاکو قد بلغ تعدادها ما بين ١٥٠٠٠٠ الف و ١٧٠٠٠٠ الف مقاتل فضلاً عن القوات التي وصلته من مقاتلي القبيلة الذهبية وبعض القوات المغولية الاخرى في بلاد الأناضول بقيادة بايجو وبعض العناصر الاخرى الجورجية والارمنية،

قسم هولاکو قواته الى ثلاث اقسام الاولى تتجه من اسيا الصغرى عن طريق الموصل والثانية تتجه عن طريق خوزستان والثالثة تتجه من همدان، وأما هولاکو فقد اتجه بقلب الجيش المغولي عن طريق كرمنشاه ونهر حلوان وقد استعان المغول ببعض الاسرى من جيش الخليفة الذين قبض عليهم وأجبروا على العمل كمرشدين لطلائع القوات المغولية فضلاً عن الامدادات التي قدمها بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل وأبو بكر أتابك فارس .

وفي ١٢٥٨ عبرت القوات المغولية نهر دجلة وواقعت الهزيمة بجيش الخليفة الذي يقوده الدويدار مجاهد الدين أبيك في معركة الدجيل ففتح المغول سد أحد الانهار الموجودة في المنطقة فغمرت المياه كل الصحراء الواقعة خلف جيش الخليفة فقتل عدد كبير من قوات الخليفة وقادته وغرق اعداد كبيرة اخرى وقضي اخرين نحبهم في الوحل في حين هرب الدويدار مع عدد قليل من جنده نحو بغداد فدخلت القوات المغولية بغداد وسد المغول طرق الهروب من المدينة امام قوات الخليفة من البر والنهر وقتلوا اعداد كبيرة من سكانها وأشعلوا النار في جامع الخليفة وقبور الخلفاء ثم قتلوا الخليفة نفسه وأثنين من ابنائه وظل هولاکو وجنوده يمارسون القتل العام في المدينة ولم يسلم الا من كان في الابار والقنوات.

لم يستطع هولوكو البقاء طويلا في بغداد لعفونة الهواء بعد ان وقع الوباء في باقي سكان المدينة الذين سلموا من القتل ويقال ان عدد القتلى وصل اكثر من ٨٠٠٠٠ الاف قتيل . هكذا دمر المغول الكتب العربية التي كانت في قصور الخلفاء والقوا بها في نهر دجلة وقد جمع نصير الدين الطوسي ما تبقى من الكتب ونقلها الى مرصدة في المراغة .

نتائج سقوط الخلافة العباسية واحتلال بغداد

لقد اوقع احتلال بغداد فزع وذعر وذهول وحيرة العالم الاسلامي فقد سارع حكامه الضعفاء الى هولوكو يقدمون له فروض الطاعة والتهنئة خوفا من بطشه فقد حضر لتهنئته مراغة اتاتيك الموصل بدر الدين لؤلؤ وكان قد تجاوز التسعين كما وارسل ابو بكر اتاتيك فارس ابنه لنفس الغرض، كما وصل الى معسكر هولوكو بالقرب من تبريز اثنان من سلاطين سلاجقة الروم وهما الاخوان المتنافسان على السلطة عز الدين كيكافوس الثاني والسلطان ركن الدين قلع ارسلان الرابع فكان عز الدين محرجا ومرتجفا اما هولوكو كون جنوده صمدوا امام القائد المغولي بايجو نويان الذي دحرهم قسرا وقد قام عز الدين بإذلال نفسه والتملق امام هولوكو وقدم له زوج من الاحذية النعل هدية الى هولوكو وقد رسم على احاهما صورة عز الدين وقال اثناء تقديم الاحذية لهولوكو (عبدك يأمل ان يتفضل الملك فيتشرف راس عبده بوضع قدمه المباركة عليها) وبتوسط زوجة هولوكو عفا عنه الايلخان .

وكان للاحتلال اثره بان فقدت بغداد اهميتها السياسية وباحتيال بغداد دخل المشرق الاسلامي في عهد جديد والت فيه السيطرة من بعد هولوكو لأبنائه الذين صاروا يستغلون عن المغول في قراقورم واسبغوا لأنفسهم دولة في ايران عرفت باسم دولة (الايلاخانيين).

بعد ان كانت بغداد مركزا هاما للعلوم والآداب والفنون وكان يهرع اليها العلماء وطلاب العلم فعندما حلة النكبة على ايدي المغول قتل الاف من العلماء والشعراء واما من سلم فقد لجأ الى مصر والشام وغيرها من البقاع وقام المغول بحرق المكتبات وخربت المدارس والمعاهد.

وعلى الرغم من قتل الخليفة العباسي المستعصم بالله الا ان الاهمية الروحية لشخص الخليفة لم تنتهي ، فقد هرب من تبقى من الامراء العباسيين من بغداد بعد مقتل الخليفة فهرب ابو القاسم احمد بن الظاهر عم المستعصم بالله والتجأ الى مهارش من عرب العراق وعندما تولى الظاهر بيبرس عرش السلطنة المملوكية في مصر عام ١٢٦٠ التجأ اليه ابو القاسم احمد ومعه عشرة من بني مهارش فاعلنه السلطان المملوكي خليفة في مصر ولقب بالمستنصر بالله كما وهرب ابو العباس احمد احد امراء العباسيين والتجأ الى حسين بن فلاح امير بني خفاجة ثم توجه الى حلب فاعلنه اميرها شمس الدين خليفة للمسلمين ولقبه بالحاكم بامر الله.

عمل هؤلاء الخليفين في القاهرة وحلب على ان يستعيدا بغداد من المغول وبعد عام من اعلان بيبرس المستنصر بالله خليفة في القاهرة طلب الخليفة الجديد من بيبرس ارسال حملة عسكرية لاستعادة بغداد الا ان بيبرس تحفظ عن ذلك خوفا من هولوكو الا انه ارسل مع الخليفة ٣٠٠ فارس فقط وبهذا العدد القليل سار الخليفة المستنصر بالله الى العراق وهناك انظم اليه بعض الجنود من الموصل وتمكن من اعادة سيطرة الخلافة على حديثة وهيت وفي مكان يعرف بـ (مشهد علي) وعند الانبار التقى المستنصر بالله بمنافسه في الخلافة الحاكم بامر الله

ومعه ٧٠٠ فارس ارسلهما معه حاكم حلب فتحالف الخليفتان لاستعادة بغداد فالتقيا بالقوات التي يقودها قرابغا نائب هولوكو في بغداد وتمكن من الحاق الهزيمة بقواتهما في معركة اسفرت عن مقتل المستنصر بالله اما الحاكم بالله فقد استدعي الى القاهرة حيث نصب فيها خليفة عام ١٢٦٢م.

الاضاع العامة في العراق في عهد الايلخان

تدهورت الاوضاع العامة في بغداد اعقاب الاحتلال المغولي وشهدت مدنه تدهورا كبيرا من جراء اعمال التدمير التي رافقت الاحتلال والاهمال الذي عانتها، ففي مجال الزراعة فقد اهمل السلاطين الايلخان وحكامهم في العراق نظام الري ولم يهتموا بتطهير الانهار والقنوات ولم يفتحوا قنوات جديدة فكثرت الفيضانات التي كانت سبب دمار كبير في البلاد من اهمها غرق بغداد في السنوات ١٢٧٧ و ١٢٨٤ و ١٣٢٥ و غرق الحلة والكوفة سنة ١٢٨٦ وتعرض العراق الى هجمات شديدة منها الامراض الوبائية المتوطنة وقد زادت الاوضاع سوء موجات الجراد التي عصفت بالعراق واثرت على كثير من المحاصيل الزراعية وكذلك موجات البرد التي اتلفت المحاصيل الزراعية .

وفي مجال التجارة فقد ازداد تفاقم الوضع بسبب ثقل الضرائب فضلا عن الحرائق التي كانت تصيب الاسواق وقد ساءت حالة العراق الاقتصادية فقد كانت الضرائب ثقيلة وخاضعة لأهواء الحكام وجشعهم كما حدث سنة ١٢٧٨ عندما امر الايلخان اباقا حاكم بغداد الجويني بضرورة استيفاء خمسين الف دينار من السكان واما انواع الضرائب التي فرضتها سلطات الاحتلال كانت : ضريبة الخراج ، ضريبة الرؤوس او الجزية وهي عامة على الجميع ، ضريبة الاسواق والعقارات وضريبة التمغات (الختم) وضريبة المراعي وحصنة الديوان من الاوقاف ومقدارها العشر فضلا عما كانت تحصل عليه من غش النقود وانقاص نسبة الذهب والفضة ومصادرة الموظفين.

اما اسلوب جباية الضرائب فكان على ثلاث انواع هي الضمان والجباية المباشرة والاقطاع والتعسف كانت السمة البارزة في اساليب الجباية المختلفة وقد ادى ثقل الضرائب وتعسف جبايتها وضعف العناية بنظام الري الى تدهور احوال البلاد اقتصاديا وازدياد الخراب في بعض المدن فانهسرت المظاهر الحضارية وانهست مكانها البداوة وغلت الاسعار وكثرت الصراعات السياسية التي نشبت بين ورثة العرش الايلخاني وقد كان له الاثر الكبير في سوء الاوضاع في العراق كما حدث اعقاب وفاة اباقا فقد اجتمع الامراء المغول ومعهم الوزير شمس الدين الجويني في بغداد واتفقوا على خلع ارغون وتولية تكوادر (الذي غير اسمه بعد حين الى احمد عندما اعلن اسلامه) الامر الذي يرضي الاول سارع بقواته من خراسان ودخل بغداد سنة ٦٨١هـ - ١٢٨٢م واتخذ عدة اجراءات مالية تهدف الاستحواذ على اموال الضرائب في العراق كما فرض على قاضي بغداد ومعاونيه دفع مبلغ عشرة الاف دينار ثم عاد الى خراسان.

عملت السلطات الايلخانية في العراق على اصدار النقود منذ عهد هولوكو ١٢٥٨- ١٢٦٥ رغم عدم العثور على مواقع السك الا في النادرة فقد وجدت بعض النقود الذهبية الدنانير مسكوكة يعود سنها الى عهد هولوكو فقد عثر على احدها وكان سكه سنة ١٢٥٨ وهو العام الذي احتل فيه المغول بغداد واسقاط الخلافة العباسية وهناك النقود الفضية الدراهم وهناك النقود

النحاسية الفس وكانت النقود قد ضربت على احد وجوها باللغة العربية وفي الوجه الاخر ضربت باللغة الايقورية كما واصدر كيخاتو العملة الورقية (الجاو) سنة ١٢٩٤ وهب عبارة عن كاغد (ورقة) مستطيلة عليها تمغة (ختم) السلطان بدلا من السكة على الدينار والدرهم .

اما الحياة الاجتماعية فقد اصبح عامة الشعب يعانون من الفقر والجوع ونقص الاموال والدمار الذي اصاب بغداد وانعدام الامن وانتشار العصابات والمجرمين وانتشار الامراض والابوئة بشكل متكرر وكثرة المجاعة.

المحاضرة الثانية:

العراق في العهد الجلائري

الجلائر هي حدى القبائل المغولية الكبيرة التي تسكن شرق منغوليا عند نهر أونن، وقد استخدم حكام المغول العنصر الجلائري في الوظائف الادارية في عهد فايدوخان الجد السادس لـ جنكيزخان ، ولما وحد جنكيز خان القبائل المغولية والتركية تحت قيادته اعتلا بعض الجلائرين مناصب مهمة في الدولة أمثال موقلي كويانك زعيم قبيلة جايت الذي قاد الجناح الايسر من جيش جنكيزخان ولقب هو واولاده بـ كويانك أي الخان الكبير بلغة ايلكونة الخطاي.

أثبت الامراء الجلائريون كفاءة عسكرية وادارية جعلت بعض منهم ينتحل مراكز مهمة في الجيش المغولي أمثال ايلكونويان الجد الاعلى للجلائرين الذين حكموا العراق.

لقد انسحب طغا تيمور حاكم خراسان في الجيش المغولي سنة ١٣٣٨ وتوجه الى بغداد هربا من مؤامرة كانت تحاك ضده بعد لن نصبت الاميرة ساتي بيك اخت السلطان ابي سعيد ، وفي بغداد اجلسه عز الدين جيهان تيمور بن الفرنك بن كيخاتو على عرش السلطنة واسند الوزارة الى وزيره السابق الخواجه شمس الدين زكريا

الادارة في العهد الجلائري

لقد سار الجلائريون على النظم التي كانت قائمة في البلاد ولم يضيفوا شيئا جديدا إلى ما كان عند اسلافهم من النظم الادارية والحضارية والاقتصادية. وبشكل عام كان الجهاز الاداري مضطربا يسوده الانحلال، ويعزى ذلك إلى الحروب بين الجلائريين والحكومات المجاورة، وهجمات تيمور لنك المتواصلة على العراق التي لم تفسح المجال للحكام في التفكير بإصلاح جدي، زيادة على عوامل اخرى منها ارتباك الإدارة وقلة الكفاءة والضبط بين الموظفين ادت دورها في عدم رسوخ السلطة الجلائرية في المدن جميعا. وكان العراق يشكل القسم الاكبر والاهم من الدولة، ومن ثم اصبحت بغداد مركزا للدواوين ومقرا للحكومة مدة اطول مما كانت عليه العاصمة تبريز، وهذا ما يوضح ازدياد اهمية بغداد في العهد الجديد، فقد كانت مقرا للسلطان الجلائري عندما يكون في العراق، أو لنائبه إن غاب عنها، ومقرا للوالي والديوان، حينما انتقلت العاصمة إلى تبريز ١٣٥٨ - ١٣٨٦

لم تستمر التقسيمات الادارية التي كانت في العراق خلال العصر الايلخاني خلال هذا العصر، والواقع انها اضمحلت منذ العهد الايلخاني، فقد استغل ولاة بغداد سلطاتهم في ابتزاز الاموال لاسترضاء السلطان واهملوا شؤون الادارة، وعملت الفتن وحوادث

الشغب بين الموظفين الى عدم ثباتهم، يضاف الى ذلك ان تولية المنصب الاداري لم يكن يلتزم نسقا ثابتا بل عرضة للأهواء الشخصية. ان عدم وجود مصادر مدونة عن العهد الجلائري، أو انها دونت لكنها لم تصل الينا جعلنا نجعل الكثير عن مناطق الادارة وطريقة ادارتها، ولكننا نستطيع القول ان نفوذ السلطان عندما يكون مقره في بغداد كان يشمل الولايات الثلاثة وهي العراق العربي وديار بكر وكرديستان، وكانت الولايتان الاخيرتان تدار من قبل الحكام الذين يعينهم السلطان مباشرة أو من قبل بعض الاسر وامراء القبائل الموالية له، لقد كانت سلطة والي بغداد محدودة وليس له أي سلطة ادارية أو غيرها على الولايات الاخرى، ويكون ارتباطها بالعاصمة تبريز، وكان السلطان يعين الحكام على جميع الولايات التابعة له، وكان لكل من العراق العربي وديار بكر وكرديستان حاكم خاص. وكان على رأس الادارة في الولاية موظف يسمى الوالي أو الحاكم أو الامير، وكانت كل ولاية تضم مجموعة من المدن يتبع كلا منها عدد من القرى والارياف، ويقال للمدينة وتوابعها اعمال. وكانت مساحة هذه الاعمال وعدد القرى التابعة لها غير ثابتة، ولم يكن تقسيمها يستند على اسس طبيعية أو جغرافية، بل كانت تحدد لتحقيق اغراض اقتصادية منها جباية الضرائب والموارد الحكومية، وان اخبار حكام هذه المدن وموظفي ادارتها والعلاقة بينهم وبين حكام المدن والقرى الصغيرة التابعة لهم غامضة، ولم يصلنا شيئا منها.

لقد شاع خلال حكم الجلائريين، اسلوب الإدارة بطريقة (المقاطعات والضمان، وبموجبه يفوض الديوان حكم احدى الولايات أو المدن إلى (الضامن) وعادة يكون صدر الديوان (الوزير) في الولاية أو الحاكم، مقابل تأدية مبلغ معين من المال، ويقوم الحاكم باستحصال الضرائب المقررة في منطقته محتفظاً بالزيادة لنفسه، وكانت تناط بالضامن بموجب هذا النظام شؤون الولاية ولاسيما اقرار الامن وتشجيع الزراعة، وهو مسؤول عن تعيين عمال أو نواب عنه في المدن الواقعة في منطقة الضمان.

واتبعت طريقة اخرى تقوم على إدارة الولايات بما عرف ب (أمانت) وبموجبها يعهد إلى أحد المقربين من السلطان أو حكام الاطراف بحكم احدى المناطق والمدن بشكل (عهدة أو امانة) مدة معينة، وله راتب من الديوان، ويكون على هذا المسؤول ضبط الامن والنظام في منطقته، وفي كل منطقة ادارية من مناطق البلاد، وفي كل مدينة، ديوان خاص أو عدد من الموظفين يمثلون ديوان بغداد عرفوا باسم الحكام أو المتصرفين والعمال، أما السلطة العسكرية في بغداد وبقية مدن العراق، فكان على راسها موظف يسمى (داروغة) - وتعني الرئيس أو الحافظ- وهو في سلطته وصلاحياته اشبه بالحاكم العسكري في العصر الحاضر في اعماله الشحنة.

لقد برزت في هذا العصر عدد من الدواوين وهي:

ديوان السلطنة: وهو من اهم الدواوين، ويسمى رئيسه نائب الديوان، وعمله مراقبة وتنظيم الاعمال الخارجية والداخلية في البلاط، ويعنى بالأمور المرتبطة بالسلطان واهله واملاكهم وشؤونهم، وكان للسلطان واسرته أملاك واسعة في البلاد يعين عليها وكلاء ونظار يتولون إدارة شؤونها، ويرسلون العوائد إلى السلطان.

الديوان الكبير أو ديوان الوزارة: كان السلطان يختار الوزير، ويصدر مرسوما بتعيينه ولقد اخذ الجلائريون بنظام الوزير الواحد.

ديوان الاستيفاء: وهو يتبع الديوان الكبير، ويرأسه مستوفي الملك الذي يختاره السلطان والمستوفي موظف من كتاب الأموال والدواوين، وعمله ضبط الديوان التابع له، والتنبيه على

ما فيه مصلحته من استخراج أمواله، ونحو ذلك ومن المستوفين: مستوفي الصحبة، وهو يشارك الوزير ويعاونه في الامور العامة، مثل كتابة المراسيم وتسجيلها، ومثله في النفوذ مستوفي الدولة، ولكل ديوان من دواوين الدولة ناظر وتحته المستوفي، ويقوم المستوفي بضبط مصادر المال وكيفية الدخل ووجوه الانفاق، وله نواب ينتشرون في جميع انحاء البلاد لإدارة الشؤون المالية بها، ويشرف ديوان الاستيفاء على امور الموظفين في مختلف الدواوين وترعى الحكومة امور موظفيها في حياتهم، وبعد مماتهم تقوم برعاية اولادهم.

ديوان الاشراف: ويسمى رئيسه مشرف الممالك، ويختاره السلطان ويكون مطلعاً على كل الاعمال، وتحت رئاسته عدد من المشرفين الذين يشغلون بالنظر في الدواوين المختلفة، ويطلعون الحكومة على اخبار الموظفين واعمالهم

ديوان الغ بيتكجي: ورئيس هذا الديوان هو مثل سائر رؤساء الدواوين الاخرى يختاره السلطان، ومهمة هذا الديوان هو النظر في الامور المالية.

ديوان الانشاء: وهو واحد من اهم دواوين المملكة يدون ويجمع كل القرارات والوثائق السياسية والادارية ووسائل السلاطين والوزراء وسائر الشخصيات الهامة.

ديوان النظر: ووظيفة هذا الديوان مثل ديوان الاستيفاء والاشراف بشأن التفتيش على مختلف الامور، ويعتبر مكملاً لهما، ويقوم هذا الديوان بضبط امور الديوان الكبير وتدبير المال وتمويل الخزانة ونفقات الامراء واصحاب الديوان، وله نواب ينتشرون في مختلف الولايات، ويسمى عمالته نظار، والنظار يشاركون الوزير في اعماله، ولقد تنوعت القاب هؤلاء بحسب الاعمال التي ألت إليهم، فناظر الجيش هو الذي يعنى بأموال الجيش، وينظر في حسابها، وناظر الخاص هو الذي ينظر في خاص اموال السلطان، وناظر الدولة عمله مشاركة الوزير في التصرف عامة والنظر في المالية وازراق اصحاب القلم من الموظفين خاصة واسمه أيضاً ناظر الدواوين، وهناك احياناً ناظر النظار أو صاحب الشريف، ومقره ديوان النظر، ويعاونه في اعماله متولي الديوان، وهو ثاني رتبة الناظر.

ديوان القضاء: كان القضاء حسب الشريعة الاسلامية بالنسبة للمسلمين، وحسب القوانين المغولية بالنسبة للمغول. وكانت اللغة العربية مستخدمة في كل القوانين إلى أن جاء الجلائريون جعلوا القوانين باللغة التي يتحدث بها أهل الولاية أو الاقليم، فاستخدمت اللغة العربية بالنسبة للبلاد التي تنتشر فيها العربية، واللغة الفارسية بالنسبة للنواحي التي تنتشر فيها الفارسية، واللغة المغولية بالنسبة للقبائل المغولية. وتمركزت التشكيلات القضائية في جميع انحاء المملكة تحت اشراف ديوان القضاة.

بلا شك أن الحروب والمنازعات الكثيرة كان لها اثر كبير على الناحية الاقتصادية في البلاد، فقد فرض الحكام الضرائب حتى يتمكنوا من تغطية نفقات الجيوش التي كانوا يخوضون بها حروبهم ومعاركهم، وقد اتاح هذا الوضع لموظفي الدولة ممارسة الظلم في معاملة الناس وتحصيل اكبر قدر ممكن من الاموال لمنفعتهم الشخصية

والضرائب التي كانت تحصل نوعان:

- ١- ضرائب مقررة: وهي تحصل بواسطة ديوان الاستيفاء، وتشكل عائداً لخزانة الديوان.
- ٢- ضرائب شرعية: وهي تحصل بواسطة رجال الدين، وتشكل عائداً لبيت المال هذا فضلاً عن ضرائب اخرى تتمثل في الهدايا والرشاوى التي كانت تقدم للمحصلين على هيئة عينية أو نقدية.

كما كانت ضرائب التماجي على النجارين والحدادين والحوانيت، وهي تجبى بواسطة حكام التماجا كما كانوا يسمون في العصر الايلخاني وما بعده، لم تدم حقبة الاستقرار التي شهدتها الحكم الجلائري طويلا، ودخلت البلاد عهد من الاضطراب والفتن وتسلسل الامراء على شؤون الحكم، وتحول العراق إلى ميدان للحروب الاهلية كانت فاتحتها اندلاع النزاع بين السلطان جلال الدين حسين ١٣٨٤ - ١٣٩٨ وأخويه الشيخ علي حاكم بغداد، واحمد حاكم البصرة، وتواصل النزاع حتى بعد مصرع السلطان، واشترك فيه الاخ الرابع بايزيد، وما أن تمت التسوية في ١٣٩٣ م بمقتل الشيخ علي واقتسام ممتلكات الدولة بين بايزيد وله منطقة الجبال، والسلطان احمد الذي تملك منطقة العراق حتى تعرضت البلاد إلى تهديد خطير نتيجة الغزوات التيمورية للعراق، وكان على بغداد أن تواجه عدة هجمات في اوقات متقاربة (١٣٩٨-١٤٠١ - ١٤٠٢) وتمخضت عن ذلك نتائج سلبية في اوضاع العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادارية.

فقد اودى الصراع الاسري الجلائري، ثم الغزو التيموري بحياة عدد كبير من الناس، وتسبب في تشريد عدد اخر وتهجير اصحاب الخبرات العلمية والحرفية إلى بلاد ما وراء النهر، ورافق ذلك اضطراب كبير كان له تأثير كبير في تدهور النشاطات الاقتصادية والفكرية والعمرانية، واضطربت الإدارة، وفقدت السلطة سيطرتها على كثير من المدن التي اعلنت استقلالها وصار نفوذ السلطان الجلائري لا يتعدى المدن القريبة من بغداد، ونتيجة للتدهور الاقتصادي، وقلة موارد الدولة، كان السلطان يمنح إدارة هذه المدن إلى ابناؤه وامرائه الذين يطمئن لولائهم، وشمل هذا النمط من الإدارة الذي هو ضرب من ضروب الاقطاع، كما ساد في مدن الحلة ومندلي وبعقوبة وتكريت وغيرها.

وكما اتسم الجهاز الإداري في العهد الجلائري في مراحلها الاخيرة عامة، بالضعف والارتباك وقلة كفاية الموظفين وانعدام الضبط بينهم، وعجز في اوقات كثير عن توفير الامن وحماية الطرق خارج المدن الكبيرة، وافترقت المواطنين الحماية، وتعرضوا في حالات كثيرة إلى النهب وهجمات قطاع الطرق، ولم يشرك الجلائريون سكان البلاد في الإدارة، فلا عجب أن ينهار حكم هذه السلالة على يد قوة تركمانية عرفت باسم دولة الخروف الاسود (قره قوينلو) حينما نجح زعيمها قره يوسف في دحر السلطان احمد الجلائري الذي لقي مصرعه وهو يحاول الفرار في ٨٣١-١٤١٠ م، وفي السنة التالية دخلت قوات قره يوسف بغداد.

-الايوضاع العامة في العراق خلال العصر الجلائري.

رغم الاستقرار الظاهري في العراق خلال العصر الجلائري الا ان الاوضاع بشكل عام سيئة ولاسيما بعد نهاية عهد السلطان اويس إذ ساءت احوال العراق بشكل كبير وهو امر راجع كما قلنا إلى الصراع بين الامراء الجلائريين من جهة والغزوات التيمورية من جهة اخرى، فضلا عن الضرائب الثقيلة، قد ساهمت في تدمير الاقتصاد في العراق خلال هذا العصر، وقد ساهم ايضا في تخريب الحالة الاقتصادية هي تلك الكوارث الطبيعية التي حدثت في ايران والعراق، منها على سبيل المثال لا الحصر هجوم الجراد وانتشار الوباء ما بين ١٣٤١ - ١٣٤٣ وما تبع ذلك من غلاء فاحش في الاسعار، ثم عودة الوباء مرة اخرى إلى هذه المنطقة سنة ١٣٥٤ كما فاض نهر دجلة عام ١٣٥٤ وتهدمت معظم مباني بغداد واصبحت خرابا، وكما غرقت بغداد مرة اخرى في سنة ١٣٧٣ وقد حاولت الحكومة التخفيف عن الناس بدفع التعويضات لهم وسن

التشريعات والقوانين للضرب على ايدي اللصوص والعابثين والخارجين على القانون، إلا أن ذلك لم يخفف مما كان يعانيه الناس حيث كانت الحالة السياسية مضطربة والتي اثرت بتبعاتها على تدهور الاوضاع بصورة عامة في العراق.

لقد اقتصرت نظرة السلاطين الجلائريين في العراق إلى الريف على انه مصدر ثروة يمكن استثمارها في تمويل عملياتهم العسكرية ودفع نفقات جيوشهم الاجنبية، فوزع المغول، منذ مطلع القرن الرابع عشر، اراضي العراق على جنودهم بدل رواتبهم، ولكنهم احتفظوا جريا على التقاليد الاسلامية (برقبة الارض للدولة)، بيد انه حدث في عهد السيطرة الجلائرية أن اخذ نوع من الاقطاع ينتشر، ولو بحدود ضيقة، عرف باسم (الادرار) وهو يمنح على سبيل الهبة للأشخاص الذين يقدمون للدولة خدمات معينة، ولا يشترط أن يكونوا من العسكريين، ليكون بمثابة راتب لهم، وهناك ما عرف بأقطاع (ادرار مقاصة) فبموجب هذا الاقطاع تبقى الارض أو القرية ملكا مؤبدا لصاحبها ولذريته من بعده، ولا يدفع عنها اية ضرائب، والى جانب هذا النوع الاقطاع بقيت بعض النظم الاقطاعية القديمة، مثل الاقطاع المستند إلى احياء الارض الموات، وبموجب ذلك تكون الارض ملكا لمستلح الارض ولذريته من بعده، وقد عرف باسم (القرار الشمسي) كما استمر الحفاظ على الملكيات الموقوفة على المساجد والمدارس، غالباً، وتعد وافية الخواجة امين الدين مرجان على منشاته التي اقامها ببغداد من اضخم الوقفات المعروفة في تاريخ العراق وادقها.

وفي جانب الزراعة لم يهتم الجلائريون بالنشاط الزراعي إلا بما يكفي لإعاشة قواتهم، ولذلك اقتصر عنايتهم على بغداد والمناطق المحيطة بها حتى أن هذه المنطقة دفعت سنة ١٣٦٣ نصف مجموع موارد العراق آنذاك، مما دل على إن النشاط الزراعي اخذ، في هذه الحقبة، بالانحسار إلى المناطق القريبة من المدن الرئيسية طلباً للأمن والحماية، أما اصلاح الانهار وتطهيرها وزيادة الرقعة الزراعية فلم تلق من اولئك الغزاة اهتماماً إلا في حالات نادرة ، كانت في هذا العصر مدارس كثيرة جيدة التحق بها تلاميذ لديهم لتلقي العلوم والمعارف المختلفة على ايدي اساتذة كبار، قاموا بالتدريس لهم، وكانت بغداد على وجه الخصوص مركزاً للعلوم والادب، ومن اهم المدارس التي كانت موجودة فيها هي: المدرسة المسعودية الذي امر بتشبيدها خواجة مسعود بن منصور زمن السلطان احمد، والايكجية التي ربما كانت مدرسة التي امرت ببنائها مخدومة شاه داية(ام) السلطان وتلقب ايكجي في عام، ١٣٦١ والمدرسة الاسماعيلية التي امر ببنائها وزير بغداد اسماعيل، والمدرسة الوفائية التي بنيت من قبل وفاء خاتون حوالي عام ١٤٠٠ وهناك ايضا مدارس (المرجانية - العاقولي- جامع سراج الدين - جامع النعماني - سيد سلطان علي) وغيرها.

لقد شهد بدء العهد الجلائري في العراق نوعاً من الاستقرار ادى الى تزايد الحركة العمرانية لاسيما في زمن والي بغداد امين الدين مرجان الذي قام بتشبيد كل من المدرسة المرجانية وخان مرجان ودار الشفاء في بغداد، ويعد خان مرجان من اجمل الخانات العراقية المتبقية ويتكون من طابقين الاول يحتوي على ٢٢ غرفة، والثاني من ٢٣ غرفة.

كما اهتم الجلائريون بالمشهد الكاظمي فقد قام السلطان اويس بتعمير المشهد فبنى قبطين ومنارتين، وامر بوضع صندوقين من الرخام الجيد على القبرين الشريفين، وزين الحرم بالطابوق الكاشاني الذي كتب عليه سور من القران المجيد كما عمر الرواق لم يقتصر النشاط

المعماري خلال هذه الفترة على بغداد فقط بل تعداها الى كل من الكوفة و كربلاء والنجف حيث ينسب للجلائريين بناء بعض العتبات المقدسة وبناء منارة ومدخل مسجد الكوفة القديم، ويرد في المصادر التي تؤرخ لهذا العصر الكثير من الابنية والعمارات التي بنيت من قبل بعض الحكام المحليين، كذلك تنسب الى السلطان احمد

تشبيد قلعة في الجانب الغربي من بغداد تسمى قلعة الامير احمد، وقام كذلك بتشبيد خان يعرف بالفنذر خانة أو خان الفنذرية بناء لمجموعة من المتصوفين الذين يعرفون بهذا الاسم واذين برزت طريقتهم في القرن الثالث عشر الميلادي، وترد في المصادر التي تورد حوادث هذا العصر اسماء عمارات وابنية لم تصل اليها اخبار بنائها ولا اماكن انشائها بصورة مضبوطة مثل الاربعيني ودار العبادة اللؤلؤية بالجانب الشرقي من بغداد

المحاضرة الثالثة

الموضوع/ العراق في عهد سيطرة القره قوينلو (الخروف الاسود) (١٤١١-١٤٦٧) م

بعد انهيار سلطة الايلخانات في ايران في عام ١٣٣٥م توزعت املاكهم بين الاسر المغولية ومن بينها الاسرة الجلائرية التي استقلت في العراق بزعامه شيخ حسن الكبير، اتخذت بغداد حاضرة لها، كما برز التركمان الذين تدفقوا الى غرب اسيا قادمين من خوارزم واطراف بحيرة ارال وشرقي بحر قزوين، والخزر، واستقروا في الشمال الغربي وشمالى الجزيرة الفراتية، مستغلين ضعف ايلخانات ايران بعد وفاة الايلخان ابي سعيد بهادر عام ١٣٣٥م فاخذوا يغيرون على مناطق الاطراف. ومن اشهر هذه القبائل: التركمانية التي ادت دورا فاعلا في الحياة السياسية هما القره قوينلو بزعامه قره يوسف بن قره محمد، والاق قوينلو بزعامه اوزون حسن

كانت قبيلة القره قوينلو(الخروف الاسود) يطلق عليها اسم البارانية نسبة الى قبائل الغز التركمانية التي نزحت من تركستان الغربية الى جهات انزبيجان وسيواس في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي وتحديدا في عهد الايلخان المغولي ارغون (١٢٨٤-١٢٩٢) م وتمكنت من اقامة كيان سياسي لها في جنوب شرق الاناضول في الاراضي الواقعة شمالي بحيرة وأن في ارمينية، على تخوم السلطنة المملوكية، ومملكة طرابزون المسيحية في جهات ارمينيا والبحر الاسود واتخذت ارغيش الواقعة في شمالي شرقي البحيرة عاصمة لها، وشاع اسمها قره قوينلو واصبح اصطلاحا خاصا بها لاشتهارها باقتناء الخروف الاسود، أو لان رايتها تحمل شارة خروف اسود.

وتشير المصادر التاريخية الى ان عشيرة بهارلو، وهي بطن من قبيلة قره قوينلو اشتهرت بصرامة رجالها وشدة بأسهم، وتولى رؤسائها الزعامه بين القره قوينلو، وكان بيرم خواجه بن تورمش اول امراء القره قوينلو الذي تعاضمت شأن القبيلة في عهده، وقد نجح في توسيع حدود دولته بحكم اتصاله بالسلطان معز الدين اويس الجلائري، ووضع خدماته تحت تصرفه عام ١٣٧٣م وعلى اثر وفاة هذا السلطان عمت الفوضى وشاعت الفتن والاضطرابات، فانتهز بيرام الفرصة واستولى على الموصل بعد حصار دام اربعة اشهر ثم احتل سنجار، وارغيش، واونيك عام ١٣٧٤م ، وبعد وفاته عام ١٣٨١م خلفه في زعامه الامارة الناشئة اخوه مراد خواجه لمدة

قليلة، فلما توفي تولى الزعامة تورمش بن بيرام خواجه، ثم ولده قره محمد، وقد اشتبك في حرب مع حاكم ماردين المدعو القاهر.

وقد استمرت القره قوينلو في عهده في تقديم الخدمات للجلائريين في عهد السلطان احمد الجلائري الذي كان بأمس الحاجة الى قوتهم، وذلك لاستخدامهم في مواجهة التيموريين ومعالجة الاوضاع المضطربة في بغداد، وكان قره محمد قد زوج ابنته الى السلطان احمد الجلائري، وقد ارسله الاخير للقضاء على تمرد اخيه الشيخ علي عندما اعلن سلطنته على بغداد، كما انتهز فرصة الفوضى التي احدثتها حملة تيمور لنك على ايران فاستولى على تبريز وعين ولده مصر خواجه حاكما عليها، ولكن عودة تيمور الى ايران عام ١٣٨٧م ادت الى فرار قره محمد، الذي دفع حياته ثمنا لتبعيته للدولة الجلائرية، اذ قتل في معركة ضد تيمورلنك التي جرت قرب تبريز عام ١٣٨٩م غير ان موقف القره قوينلو من الجلائريين لم يتغير اذ استمر الامير الجديد قره يوسف بن قره محمد في مساندة السلطان احمد ضد التيموريين.

مرت على الامارة ابان الغزوات التيمورية في اواخر القرن الرابع عشر سلسلة من الانتكاسات، فقد واجه قره يوسف بن قره محمد في اوائل عهده خطر تيمورلنك الزاحف الى غربي اسيا للقضاء على نفوذ الحكام المحليين ومنهم قره يوسف (١٣٩٠-١٤٢٠) م نفسه والسلطان احمد الجلائري في العراق، فتحالف الزعيمان لمقاومته، غير انهما لم يصمدا طويلا في وجهه واضطروا الى الفرار الى الاناضول للاحتماء بالسلطان العثماني بايزيد الاول (١٣٨٩-١٤٠٣) م فدخل تيمورلنك العراق في عام ١٣٩٨م وكان قد سيطر على خراسان ومازندران وكردستان واذريجان وشروان وارمينيا وارزن الروم وارزنجان. ثم تمكن من السيطرة مؤقتا على بغداد في عام ١٤٠٢م ولكنه اجبر الى الفرار الى الشام مع حليفه احمد الجلائري ثم توجه الى مصر لطلب المساعدة من السلطان الناصر فرج بن برقوق (١٣٩٩-١٤١٢) م الا انه قبض عليهما وزجهما في السجن حرصا على صداقته مع تيمور لنك، وبعد وفاة تيمورلنك اطلق الناصر فرج سراح قره يوسف زعيم قبيلة القره قوينلو مع حليفه احمد الجلائري.

توجه قره يوسف في تشرين الاول ١٤٠٦م على رأس الف مقاتل الى اذربيجان للسيطرة عليها، وكانت تحت حكم ابي بكر ميرزا بن ميران شاه، واستولى في طريقه على قلاع عدة انتزعها من القادة التيموريين، فاصطدم به بالقرب من نخجوان وانتصر عليه وانتزع منه مدينة تبريز وطارده حتى جرجان وهزمه ثانية، وقتل ابي بكر ميرزا في المعركة وسيطر قره يوسف على كامل اذربيجان. وبعد عامين تمكن قره يوسف من تحقيق نصر كبير على ميران شاه في معركة انتهت بمقتله. عقب ذلك هاجم قره عثمان البايندري زعيم الاق قوينلو وانتصر عليه، وضم ديار بكر الى املاكه واحتل الموصل خلال عامي (١٤٠٨-١٤٠٩) م وسرعان ما اندلع الصراع بين حلفاء الامس، اذ لم تعد اماره القره قوينلو ترى فائدة من تبعيتها للدولة الجلائرية، اذ ان دائرة نشاطها العسكري امتد ليشمل اجزاء مهمة من المناطق الخاضعة لنفوذ الدولة الجلائرية حتى انه عند وفاة تيمور لنك، وعودة السلطان احمد الى بغداد كانت حدود الامارة قد اتسعت مساحتها لتشمل اراض تمتد من اذربيجان الى ماردين والموصل وتنوع سكانها. الامر الذي دفع السلطان احمد الى التفكير في تقليص نفوذهم لاسيما وان الظروف السياسية الجديدة التي اعقبت مصرع تيمور لنك قد حكمت على الدولة التيمورية بالزوال وجعلت

السلطان احمد لا يعبأ بالقوة العسكرية التي كانت تمده بها امارة القره قوينلو كما ان السلطان احمد كان يخشى من ان يتطور نفوذ القره قوينلو فيهدد مركزه في العراق ويؤذن بنهاية الحكم الجلائري.

وهكذا شن السلطان احمد هجوما عام ١٤١٠م على القره قوينلو في جهات اذربيجان، غير ان قره يوسف وجموع القره قوينلو تمكنوا من الحاق هزيمة بالسلطان وجيشه، وقد اسر السلطان نفسه مع عدد كبير من قادته واتباعه، فامر قره يوسف بقتله لتكره ونسيانه الجميل الذي اسداه القره قوينلو اثناء الغزو التيموري للدولة الجلائرية، ثم الحق به ومن تبقى من قادته واتباعه، فالت الى القره قوينلو ممتلكات الجلائريين في جهات اذربيجان واهمها تبريز والسلطانية.

وبعد القضاء على السلطان احمد بعث قره يوسف ابنه محمد شاه الى بغداد، وكانت قد الت حكومتها الجلائرية الى صبي يعرف بشاه محمود بن شاه وهو حفيد السلطان اويس الجلائري، وكانت زوجة والده دوندو خاتون صاحب السلطة الفعلية في بغداد، وكان جل اهتمامها هو حماية العرش الجلائري والتشبث في حكم بغداد قدر الامكان، وقد ابتدعت حيلة من اجل ابعاد خطر القره قوينلو، اذ اوعزت الى احد الامراء المنقادين لها وهو بخشايش ليتولى حكومة بغداد موعزة له الترويج الى ان السلطان احمد مختبئ في بغداد وانه سوف يظهر بعد حين، وكانت الاشاعات قد دارت حول هزيمته ومقتله.

ويبدو ان الترويج لفكرة اختفاء السلطان في بغداد كانت تجد اذانا صاغية من قبل بعض السكان حيث انقسم سكان بغداد في وسط هذا الجو المشحون بالقلق والاضطراب بين مصدق ومكذب لفكرة بقاء السلطان حيا، بينما كانت حملة الشاه محمد في طريقها الى بغداد، وقد طلب بخشايش من دوندو خاتون ان تزوجه ابنتها.

ويبدو ان بخشايش الذي وجد في هذه الظروف فرصة سانحة للاستئثار بعرش السلطنة عن طريق الزواج بأميرة من الاسرة الجلائرية، فضلا عن ذلك اراد ان يضمن ابقاء دوندو خاتون بجانبه حتى الفصل الاخير من اللعبة التي خطط لها سوية. ولم يكن امام دوندو خاتون التي احيطت علما باقتراب الحملة من بغداد غير التظاهر بالموافقة، ثم عملت على اغتياله.

ويبدو ان عبد الرحيم بن الملاح الحاكم الجديد لبغداد الذي شعر بالزهو لاستلامه مقاليد الحكومة، فاخذ يروج بحماس لفكرة اختفاء السلطان، ثم اصدر الاوامر بتزيين بغداد اجمل زينة على شرف خروج السلطان احمد من المكان الذي يختبئ فيه، ويبدو ان مسألة الاشاعة التي راجت في بغداد بكون السلطان احمد ما زال حيا، كانت تستهدف ايهام الشاه محمد بقوة هذه المدينة، بحيث اضطر الى الانسحاب منها لفترة محدودة ومن ثم العودة اليها. وبينما كان البغداديون منهمكين في تزيين بغداد فانسلت دوندو خاتون ليلا مع افراد اسرتها واموالها من بغداد نظرا لإدراكها استحالة الوقوف بوجه حملة محمد شاه، فاتجهت بسفينة الى واسط ومنها الى شوشتر متجنبة الوقوع بيد القره قوينلو الذين دخلوا بعد بضعة ايام بغداد عام ١٤١١م وتبدو مشاعر الغضب ازاء ما حصل في بغداد واضحة في سلوكه تجاه الجماعة التي اشاعت فكرة بقاء السلطان احمد حيا وقرب ظهوره، اذ طلب قائمة بأسماء كادت تستوعب معظم وجهاء

بغداد الامر الذي جعل الشاه محمد يتردد في معاقبتهم جميعا واكتفى بقتل الشيخ احمد السهروردي باعتباره على رأس المروجين لتلك الاشاعة.

تولى محمد شاه حكم بغداد متمتعا باستقلال اداري واسع طوال ولايته التي دامت ٢٣ عاما، وقد قام بدوره بتوزيع المناصب لأقربائه في اهم المدن العراقية على شكل اقطاعات استغلال (اولكة) وقد تدهور الوضع السياسي في العراق بعد احتلال الشاه محمد لمدينة بغداد، وذلك لان سلطة القره قوينلو لم تكن تشمل الا بعض المراكز المهمة، ففي الوقت الذي كان للقره قوينلو حكام على مدن كركوك واربيل والموصل وداقوق والدجيل، وان باقي انحاء العراق ظلت بيد حكامها المحليين أو حكام الاسرة الجلانية، وقد نازع هؤلاء جميعا سلطة القره قوينلو، التي اتسمت بالضعف اما قره يوسف فواصل عملياته العسكرية خلال عامي (١٤١٢ - ١٤١٤) فاتجه شمالا وهاجم شروان، والكرج، وسيطر على سلطانية وساوه وقزوين وطارم، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى وصل الى حلب. ونعرف انه اضطر الى مهاجمة العراق مرة ثانية عندما امتنع ابنه شاه محمد عن تقديم الاموال المترتبة على حكومته فحاصرها في عام ١٤١٨م واجبر ابنه على تسليم الاموال، من جانب اخر وضعت الرغبة في التوسع قره يوسف وجها لوجه امام شاه روخ الحاكم التيموري على خراسان، بفعل تجاور املاكهما، وقد خشي شاه روخ من امتداد النفوذ التركماني الى اراضيه، فنهض للقضاء على قره يوسف، غير انه وتوفي عام ١٤٢٠م. وبعد وفاة قره يوسف بدأت المنافسة على اشدها بين ولديه اذ سعى اسكندر للسيطرة على تبريز، بينما كان اسبان يطمح الى انتزاع بغداد من اخيه محمد شاه وقد تمكن من تحقيق ذلك لاحقا، ونتيجة سيطرة اسكندر على اذربيجان اضطر الى مواجهة الامبراطورية التيمورية، وكان شاه روخ يتقدم باتجاه اذربيجان، وجرى اللقاء الدامي بينهما مما اسفر عن انتصار شاه روخ، وفر اسكندر مع اخيه جيهان شاه من ارض المعركة، ودخل القائد التيموري اذربيجان، وبعد ان رتب اوضاعها عاد الى خراسان.

استغل اسكندر عودة شاه روخ الى بلاده، فجمع قواته وهاجم الحاميات التيمورية في اذربيجان، فطردها واستعاد البلاد، وهاجم شروان وأران وبلاد الاكراد، واستولى على السلطانية التابعة لشاه روخ في عام ١٤٢٩م فاضطر الحاكم التيموري للعودة الى اذربيجان للمرة الثانية لتأديب اسكندر، فاصطدم به في سلماس في اذربيجان، وعلى الرغم من استئصال الامير التركماني الا انه تعرض لهزيمة قاسية، وفر من ارض المعركة باتجاه الاناضول، وعاد شاه روخ بعد انتصاره الى خراسان.

وفي الوقت الذي كان اسكندر يقارع بقايا الامبراطورية التيمورية اندلع الصراع على العراق، ففي عام ١٤٢١م راسل اكثر وجهاء بغداد السلطان اويس الثاني الجلاني الذي كان يحكم شوشتر من اجل استعادة بغداد وبالفعل قدم هذا وحاصرها، الا ان امر المراسلة قد انكشف فامر محمد شاه بالقبض على جميع من لهم علاقة بها وعددهم احد عشر شخصا، وقتلهم، اما اويس الثاني فقد فشل هجومه وقتل، ولم ينجو العراق من هجمات الامبراطورية التيمورية، ففي عام ١٤٤٣م ارسل ابراهيم بن شاه روخ الذي كان حاكما على شيراز من قبل والده جيشا الى البصرة للسيطرة عليها، ووقعت معركة بين اهالي البصرة والقوات التيمورية التي هزمت فيها وتراجعت. ثم تعرضت بغداد الى هجوم واسع في العام نفسه شنه اسبان بن قره

يوسف في محاولة لانتزاع الولاية من اخيه محمد شاه، وبعد معارك طاحنة سيطر اسبان على بغداد والحلة وواسط، وهرب محمد شاه ثم قتل.

حكم اسبان بغداد بصورة مستقلة عشر سنوات حتى وفاته في عام ١٤٤٤م وقد اراد اسبان السيطرة على اربيل فارسل حملة حاصرت المدينة، فلما عجز عن احتلال القلعة، ارسل بعض جنوده اليها بحجة هروبهم منه، وارسل معهم سما ليرمونه في ابار القلعة، ففعلوا ذلك، مما ادى الى وفاة عدد كبير من الناس نتيجة تسميم مياه الابار مما سهل عليه احتلال القلعة. اما اسكندر فقد واجه حملة ثالثة من قبل شاه روخ عام ١٤٣٥م نتيجة استعادته لأذربيجان مرة ثانية. ولكن انضمام جيهان شاه وبعض امراء القره قوينلو الى صفوف التيموريين، بعد فشل اسكندر في حسم الصراع لصالحه مع شاه روخ، اجبر اسكندر على الفرار من امامه من دون قتال، متوجها الى الاناضول للاحتماء بالعثمانيين، وقد تصدى له قره عثمان البائندري قرب ارزنجان لقطع الطريق عليه، لكنه جرح في القتال الذي جرى بينهما وتوفي على اثرها في اب ١٤٣٥م وقد استاء اسكندر من انقلاب اخيه عليه وانضمامه الى شاه روخ فهاجمه الا انه تعرض للهزيمة وفر الى نخجوان، حيث قتل على يد ابنه قباذ عام ١٤٣٧م خلفه اخاه جيهان شاه، الذي وصلت امارة القره قوينلو في عهده الى ذروة قوتها، وكان تابعا لشاه روخ الذي اضاف اليه حكم فارس وكرمان والعراق، الذي يحكمه فولاذ ابن اسبان، فقاد جيهان شاه جيشه وحاصر بغداد في عام ١٤٤٥م مدة ستة اشهر تمكن في نهايتها من دخولها فخر بها وسجن فولاذ الذي لم يلبث ان توفي في سجنه، وقد ربطت بغداد مباشرة بتبريز، ووليها ابن السلطان جيهان شاه محمدي ميرزا (١٤٤٧ - ١٤٤٩م) ثم حكمها بعده ابنه الاخر بير بوداق (١٤٤٩ - ١٤٦٧م) وكانت وفاة الحاكم التيموري في عام ١٤٤٧م قد غيرت الاوضاع السياسية في المنطقة.

فقد اعلن جيهان شاه استقلاله عن التيموريين، وتمسك بما تحت يده من املاك، واراد ان يتوسع على حسابهم، فزحف شرقا واستولى على سلطانية وقزوین واصفهان عام ١٤٥٢م وفارس وكرمان في العام التالي وتلقب بلقب سلطان وخابقان، ثم استولى على هراة عاصمة التيموريين عام ١٤٥٨م غير انه توقف عن الزحف فجأة، ويعود السبب في ذلك الى ان توسع جيهان شاه اثار ضده كلا من ابي سعيد بن شاه روخ الذي نهض من تركستان على رأس جيش كبير لاستعادة املاك التيموريين ولاسيما العاصمة هراة، واوزون حسن زعيم الاق قوينلو الذي خشي من ان يهدد جيهان شاه املاكه في ديار بكر.

واجه جيهان شاه خطرا ثالثا تمثل بثورة ابنه حسن علي في اندريجان، وبير بوداق حاكم فارس والعراق، وكان قد استولى على بغداد واعلن ثورته منها. وهكذا وقع جيهان شاه بين فكي كماشة، التيموريين من الغرب والاق قوينلو من الشرق، فاضطر عن التوقف عن متابعة الزحف للاستعداد لمواجهة هذه الاخطار، وقد عمل جيهان شاه على تصفية مشاكله مع ابي سعيد فعقد صلحا معه تنازل له بموجبه عن خراسان وعاد الى تبريز.

لقد شجع الصراع المتواصل بين القره قوينلو وبقايا الامبراطورية التيمورية، بير بوداق على الاستقلال عن حكم ابيه السلطان جيهان شاه، وكان بير بوداق قد اظهر طموحا كبيرا لمد نفوذه على اجزاء اخرى من ممتلكات القره قوينلو، دفعه للإغارة على مناطق تعد اداريا ضمن نفوذ امراء اخرين من عائلة القره قوينلو. كما انه لم يتوان عن الزحف الى تبريز منتهزا فرصة

غياب ابيه جيهان شاه عنها وانشغاله في بلاد الكرج، وذلك خوفا من ان تقع بيد غيره اذا ما طرأ حادث لوالده، ولكنه عاد ادراجه الى بغداد بعد عودة جيهان شاه معتذرا بخوفه من سيطرة امراء اخرين من القره قوينلو عليها، وقد اضطر جيهان شاه الى قبول هذا العذر على مضض منه. والملاحظ ايضا ان بير بوداق كان يتطلع دائما نحو شيراز، لذا فانه عمل ما في وسعه من اجل مساومة والده وحثه لضمها الى دائرة نفوذه، وقد شجعتة على ذلك طلبات ابيه المتكررة لتعزيز نفوذ القره قوينلو في فارس، ففي عام ١٤٥٢م قاد بير بوداق حملة من اجل الاستيلاء على شوشتر من اجل ضمها الى دولة القره قوينلو، بعد وفاة سلطانها محمد بن بايسنقر التيموري، فكان له ما اراد، وبعد عامين ترأس بير بوداق مع ابيه لاستعادة اصفهان الى حظيرة الدولة، وفي عام ١٤٦٠م قاد حملة ثانية لقمع عصيان اندلع في اصفهان ايضا.

ويبدو ان جيهان شاه اقتنع في النهاية بضرورة مكافئة ابنه، الا انه كان يخشى من تعاضم نفوذ ولده بحيث ينتهي به الامر الى السيطرة على تبريز نفسها، فعرض على ابنه حكم شيراز بعد ان الت اليه مدينة شيراز والتخلي عن بغداد، ولكن بير بوداق كان يطمع بالاثنين معا، فتجاهل عرض ابيه مفضلا حكم بغداد على شيراز ولعل السبب في ذلك هو ان بغداد بعيدة عن مركز دولة القره قوينلو في تبريز التي كانت في وضع استراتيجي افضل من شيراز، حيث ان سياسة جيهان شاه هذه تركت اثارا سيئة لدى بير بوداق لذلك نراه يعمد الى جمع ارباب الحرف والصناعات في مدينة شيراز فيلحقهم بركبه ثم يسرع الخطى نحو مدينة بغداد خشية وصول امير جديد عليها، ولما وصلها عام ١٤٦٢م عمل على قطع الاموال عن ابيه مدة ثلاث سنوات على التوالي، الامر الذي ادى الى نشوب الحرب بينهما.

لذا توجه جيهان شاه الى بغداد ووصلها عام ١٤٦٦م وفرض عليها الحصار ولما عرف بير بوداق بان حكمه شارف على الزوال، ولذلك قرر التثبيت والمقاومة حتى النهاية، اما جيهان شاه فلم يكن امامه سوى القضاء على بير بوداق الذي اجبره على قيادة حملة توجه خلالها من تبريز الى بغداد، ومهما يكن من امر فقد كان الحصار شديدا على اهالي بغداد الذين لاقوا الامر من عنت وعناد المقاتلين، فشهدت المدينة مجاعة مخيفة اضطرت الكثير من السكان الى ترك المدينة واللجوء الى معسكر جيهان شاه مجازفين بحياتهم بالرغم من العقوبات الصارمة التي كان بير بوداق يوقعها بالفارين أو بنويهم ، واخيرا استسلم بير بوداق وطلب الامان وهكذا فتحت ابواب بغداد عام ١٤٦٧م غير ان بير بوداق لقي حتفه على يد اخيه محمد ميرزا. اما ثورة حسن علي الابن الثاني لجيهان شاه فقد نجح الاخير من اخمادها، ثم التفت لحسم الصراع مع الاق قوينلو. وكان اوزون حسن زعيم قبيلة الاق قوينلو في ديار بكر قد اغتتم حالة الانتشاق التي حدثت بين جيهان شاه وولده، وما رافق ذلك من اضطراب، فمد سلطته الى المناطق المجاورة التابعة للقره قوينلو، فزحف جيهان شاه على رأس جيشه الى ديار بكر عام ١٤٦٧م غير ان شتاء ذلك العام كان قاسيا فتعذر عليه متابعة الزحف فتوقف في سنجاق، فباغته اوزون حسن وقتله وهو يهيم بالفرار وذلك في ١١ تشرين الثاني ١٤٦٧م ، واسر ولده محمد ميرزا، وابو يوسف ميرزا ثم سار اوزون بعد انتصاره الى بغداد وحاصرها الا ان حاميتها قاومتها، فاضطر الى رفع الحصار، والتوجه الى تبريز للقضاء على حسن علي الذي تولى السلطة هناك بعد مقتل والده جيهان شاه، وكان دولة القره قوينلو قد تضعضعت بعد مقتل جيهان شاه، وفقدت اهميتها ولاسيما في عهد ابنه حسن علي، الذي لم يحسن تدبير الامور، واسرف في

تبذير الاموال، وقتل عددا من امراء القبيلة، ولما تعرض لهجوم اوزون حسن هرب الى همدان وربما قتل على يد احد اتباعه أو انتحر في نيسان ١٤٦٩م، كما قتل اخوه ابو يوسف عندما حاول احياء الامارة في فارس.

وفي بغداد الت حكومتها الى الامير بير محمد الطواشي بن زينل الذي اشترك في قتل بير بوداق وحكمها مدة ثلاث سنوات ١٤٦٧-١٤٧٠م وتولاها الامير حسين علي بن زينل مدة عام واحد، واخيرا تولاها منصور بن زينل قرابة شهرين وبمقتله انقرضى حكم قره قوينلو في العراق ليبدأ عهد امارة تركمانية جديدة هي الاق قوينلو

العراق في عهد سيطرة الاق قوينلو (الخروف الابيض) ١٤٧٠-١٥٠١م

وهي من بين الامارات التي اقامتها العشائر التركمانية النازحة من تركستان الغربية الى ازربيجان والاناضول في اواخر القرن الثالث عشر، وعرفت باسمها لاشتهارها باقتناء الشياه البيض، وكان لها عند بداية ظهورها، قوة ونفوذ نظرا لاتباعها سياسة مؤيدة لتيمورلنك، وحصل زعيمها بهاء الدين عثمان قره يولك البايندري على مكانة مرموقة، وثبت اقدام امارته في ديار بكر واتخذت (امد) عاصمة لها، وقد تمكن من تحقيق نصر على حاكم طرابلس المملوكي برسباي الذي حاول مد النفوذ المملوكي الى امد، ثم سرعان ما دحر حاكم سيواس برهان الدين واستولى على المدينة. ولكنه اصطدم مع سلطان القره قوينلو اسكندر بن قره يوسف عام ١٤٣٥م في معركة هزم على اثرها ثم توفي، تاركا حكم الامارة الى ابنه حمزة بيك، في وقت كان ولده الاخر يعقوب يحكم ارزن الروم شريكا مع ابن عمه جهانكير بن علي بيك بن عثمان. وبعد وفاة حمزة بيك عام ١٤٤٤م تولى الحكم جهانكير بن علي بيك، ولكن سرعان ما انتزع اخاه اوزون حسن بن علي بيك الحكم منه عام ١٤٤٥م وقد ازدادت قوة الامارة في عهده وغدت المنافس لغريمتها امارة القره قوينلو، فاستولى اوزون على ارمينيا الغربية والوادي الاعلى لنهر دجلة وادخل الاكراد في هذه المنطقة في طاعته، وتمكنت من القضاء عليها في معركة حاسمة دارت في ديار بكر عام ١٤٧٠م حينما قتل عاهلها جيهان شاه، وضم العراق لإمارته.

ان سيطرة اوزون حسن على املاك دولة القره قوينلو وضعته وجها لوجه امام ابي سعيد الحاكم التيموري لخراسان الذي خرج على رأس جيش كبير الى ازربيجان لاستعادة حقوقه في غربي ايران، الا انه هزم امام اوزون حسن عام ١٤٦٩م الذي سيطر بعد ذلك الانتصار على جميع انحاء ايران واتخذ تبريز عاصمة له، ومن جهة اخر كان اوزون حسن يشعر بالخطر العثماني على ممتلكاته لذا سارع الى عقد معاهدة مع دولة البندقية ضد الدولة العثمانية وبذلك اخذ اوزون حسن يشكل عقبة امام التوسع العثماني في الشرق، وكان اوزون حسن قد ارسل قوة عسكرية عام ١٤٧١م وصلت الى (توقات) في الاناضول وبعد ان نهبتها وصلت الى بلاد قرمان واشتبكت مع الجيش العثماني الذي يقوده مصطفى ابن السلطان محمد الفاتح الذي تمكن من دحر قوات الاق قوينلو، غير ان ذلك لم يثنهم، وبعد عامين تحرك اوزون حسن واصطدم بالعثمانيين في معركة عند مدينة (بابيرت) في ازربيجان اسفرت عن هزيمة ثانية للاق قوينلو. اما العراق فقد تولى حكمه مقصود بيك بن اوزون حسن، وقد نال شيئا من الاستقرار، ولكن سرعان ما شاع الارتباك في الامارة اثر وفاة اوزون حسن عام ١٤٧٧م بسبب الصراع على السلطة بين اولاده واحفاده، اذ تولى العرش السلطان خليل بن اوزون حسن الذي لم يدم حكمه

سوى اقل من ستة اشهر اظهر فيها تعسفا، وانغماسا باللهو والترف، فاندلعت حركات التمرد، وقد ثار ابن عم السلطان خليل المدعو مراد بن جهانكير حاكم بغداد، وحاول احتلال مدينة السلطانية، الا انه اندحر امام قوات السلطان وقُتل.

وقد التف الامراء الناقمون على خليل حول اخيه يعقوب بيك وهو الابن الثالث لأوزون حسن واسندوا ثورته في ديار بكر، فتشجع يعقوب بيك، وتقدم بجيشه الى اذربيجان، ووقع هزيمة ساحقة بقوات السلطان وقتله واعلن نفسه سلطانا في تبريز عام ١٤٧٨م وظل يحكم حتى عام ١٤٩٠م وتمتعت الامارة خلال تلك الحقبة بشيء من الاستقرار.

وبوفاة يعقوب تجددت الاضطرابات، وكثرت الحروب الاهلية بين مختلف الطامعين من السلالة الحاكمة، وادى ذلك الى تفكك سلطة الاق قوينلو، وقد اصبح العراق اقليما مهملا من دولة مجزأة يتنافس فيها الطامعون لفرض سيطرتهم بالسلب تارة والقتل تارة اخرى، وقد تولى الحكم بعد يعقوب اخيه مسيح بيك، الا ان انشقاق حدث بين امراء الاق قوينلو اسفر عن اختيار علي بيك بن خليل بيك، ولكن الامور لم تهدأ وانتهت بتولي بايسنقر بن يعقوب العرش وهو فتى في العاشرة من عمره فطمع الامير رستم بن مقصود بالعرش ونجح في دحر قوات بايسنقر ودخل العاصمة تبريز في عام ١٤٩١م مجبرا السلطان على الفرار، وتتابعت حركات التمرد والعصيان في عهد الغاصب الجديد ولم تنته الا بعد ان تمكن الامير احمد من احفاد اوزون حسن من دحره وقتله عام ١٤٩٥م وقد اعلن احمد نفسه سلطانا، ولكن حكمه لم يدم اكثر من ستة اشهر قتل على يد مراد بن يعقوب، وسرعان ما اعلن ثلاثة من الامراء في وقت واحد انفسهم سلاطين وكان العراق وبلاد فارس من حصة مراد وهو احد هؤلاء السلاطين الثلاثة.

وفي مطلع عام ١٥٠٠م انقسمت ممتلكات دولة الاق قوينلو بين الوند ميرزا والسلطان مراد، وكان الاول يحكم اذربيجان، والثاني يحكم اقليم الجبال، وهناك عدد كبير من امراء الاق قوينلو يحكمون فارس ويزد وكرمان والعراق وديار بكر بصورة مستقلة، ولا يدينون بالطاعة للسلطان مراد أو الوند ميرزا.

وفي هذه الفوضى تردت الاوضاع الى حد كبير ولم ينقذ الوضع المتردي سوى ظهور اسماعيل الصفوي شاه ايران الجديد الذي اخذ على عاتقه توحيد ايران تحت سلطته، وقد حقق انتصارا على حاكم الاق قوينلو الوند ميرزا بن يوسف بيك بن اوزون حسن عند نخجوان في عام ١٥٠١م وضم اذربيجان الى املاكه.

ومن خلال هذا الاستعراض السريع للمنازعات والحروب الاهلية التي عمت الامارة، يتبين لنا ان العراق في هذا العهد مر بسلسلة من الاضطرابات كانت جزء من فوضى عامة سفكت خلالها دماء العراقيين ارضاء لجشع المتنافسين وتسابقهم على السلطة ومحاولاتهم لجمع وتكديس الاموال وصرفها على ملاذهم الخاصة، ولم يكن احدهم اذا ما نجح مؤقتا في الوثوب الى الحكم، ان يفكر في القيام أي اصلاحات للوضع في العراق.

١- قيام الدولة الصفوية

عرفت الدولة الصفوية بهذا الاسم نسبة الى الشيخ صفي الدين اسحق الاردبيلي (١٢٥٢-١٢٥٣م) وينتسب هذا الى اسرة ثرية معروفة في مدينة اردبيل الواقعة في الجزء الشرقي من اذربيجان، وقد ذاعت شهرته بوصفه وليا من الاولياء ومؤسس طريقة صوفية عرفت بالطريقة (الصفوية) وكانت هذه الطريقة واحدة من طرق صوفية عديدة نشأت في انحاء المشرق الاسلامي ابان عهود الاضطراب والقلق السياسي. وكان الشيخ صفي الدين اسحق الاردبيلي رجلا زاهد درس العلوم الدينية والعقلية في صباه ثم تعمق في اسرار المحبة الالهية والصفوية، وتلمذ على يد شيوخ عدة، وفكر بالرحيل الى فارس لكنه نزل في مدينة شيراز حيث اتصل بالشاعر سعدي الشيرازي، ونصح الامير عبد الله الفارسي، وهو من اعيان شيراز، بالاتصال بالشيخ تاج الدين ابراهيم الجيلاني المعروف بالشيخ الزاهد، وظل صفي الدين يلازم هذا الشيخ بعض الوقت ثم زادت الصلة بينهما وتوثقت بزواج الشيخ صفي الدين من فاطمة ابنة شيخه ومرشده.

وحيث احس الشيخ الزاهد الجيلاني بدنو اجله، اوصى بان يحل صفي الدين محله في رئاسة الطريقة التي كان يتوارثها عن الجنيد البغدادي عن السري السقطي عن معروف الكرخي، وكرم ابنه الذي كان يدعى جمال الدين من تولى هذا المنصب، وقد حظي صفي الدين الاردبيلي بمكانة كبيرة عند الايلخان ابي سعيد بهادر خان ووزيره رشيد الدين وابنه غياث الدين وغيرهم من امراء المغول. وقد انتقلت لصفوي الدين رئاسة هذه الجماعة الدينية الكبيرة، ومشيخة هذه الطريقة الصوفية التي كان لها كثير من الاتباع والمريدين في جيلان وأذربيجان ويقال ان عددهم كان مائة الف مريد، منهم اثنان عشر الفا في حضرة الشيخ وكان له اربعمائة خليفة يتولون ارشاد هذه الجماعة والاشراف على شؤونها.

وتكمن اهمية الشيخ صفي الدين الاردبيلي في تحويله الطريقة الصفوية من مجرد طريقة صوفية محلية الى حركة دينية لم يقتصر نفوذها وتأثيرها ضمن حدود ايران حسب، بل في بلاد الشام والأناضول. وقد تحقق ذلك من خلال نشاط الدعاة الصفويين، الذين نجحوا خلال المراحل اللاحقة في كسب العديد من القبائل التركمانية في تلك الاتجاه وشكلت هذه القبائل التركمانية فيما بعد نخبة القوة العسكرية الصفوية (القرلباش) وبعد وفاة صفي الدين الاردبيلي عام ١٣٣٤م تولى ابنه صدر الدين موسى مشيخة (بير او مرشد) الحركة الصفوية حتى عام ١٣٩٢م وكانت هذه الفترة تتسم بعدم الاستقرار في ايران، وقد اشرنا الى ذلك سابقا بدء من وفاة السلطان ابو سعيد في ١٣٣٥م وانتهاء بغزو تيمور لنك للمنطقة منذ ١٣٨١م.

وفي مثل هذا الوضع واصل صدر الدين موسى الدعاية الصفوية بنشاط لكسب المزيد من المريدين، وبدأت في عهده تطلعات الاسرة الصفوية نحو العمل السياسي مما اثار ضده الحاكم المغولي في اردبيل الاشرف جوبان بن تيمور تاش الذي نفاه الى تبريز، لكن مكانة الشيخ صدر الدين موسى في نفوس الاتراك في اردبيل دفعت الحاكم المغولي الى اعادته، الا انه فكر في القضاء عليه ثانية عن طريق دس السم له، ولما علم صدر الدين موسى غادر اردبيل الى جيلان واستقر عند اخواله واتباع الشيخ ابراهيم الزاهد الجيلاني، مما اثار فزع الاشرف جوبان، وظل هناك الى ان هاجم جاني بيك، حاكم القبيلة الذهبية المغولية في اذربيجان عام ١٣٥٧م وانتزعها من ايدي الجوبانيين، وتمكن احد الامراء المغول ويدعى ارغون من قتل الاشرف جوبان، فعاد صدر الدين الى اردبيل.

وتذهب المصادر التاريخية الى القول بان العديد من نبلاء المغول اصبحوا من مريديه وفي عهده ايضا وصل دعاة الحركة الصفوية الى مدينة هراة حيث أقام احد هؤلاء ويدعى (قاسم الانوار) مركزا للدعوة الصفوية فيها منذ(١٣٧٧-١٣٧٣)م ، وقد انتقلت مشيخة الصفويين بعد صدر الدين موسى الى ابنه خوجة علي الذي لقب بـ (سياه بوش) أي لابس السواد، والذي ينسبون اليه كما ينسبون لبقية زعماء هذه الاسرة ، الكثير من الكرامات خاصة مع تيمورلنك الذي كان يعترف في هذا الشيخ اعتقادا كبيرا، عن طريق ما كان يروونه من ان تيمور اثناء عودته منتصرا من حربته ضد السلطان العثماني بايزيد والذي عبر من أردبيل وكان قد حمل معه عدد من الاسرى اغلبهم من رؤساء ورجال عشائر تركية، وهي: روملو، شاملو، قاجار، استاجلو، افشار، بيات، ذو القدر، تكلو(تكة لو) وانضم الى هذه العشائر والقبائل التسع فيما بعد صوفية قراباغ.

طلب تيمور من الشيخ علي سياه بوش ان يتمنى اي شيء، فطلب منه الشيخ ان يطلق سراح الاسرى الروم (العثمانيين) الذين كانوا معه، فامر تيمور على الفور بأطلاق سراح هؤلاء الاسرى والسبايا، ولم يكتف بهذا بل اشترى تيمور ما حول اردبيل من مزارع وضياع من ماله ووافقها على زوايا الصفويين وتكايهم في اردبيل، كما منح خراج تلك البلاد لهذه الاسرة وخصصها لهم.

وهكذا اجتمعت لهذه الاسرة كل مقومات الرئاسة والزعامة دون مشقة، اذ انتقلت الى صفي الدين رئاسة جماعة دينية كبيرة دون ان يشقى في تكوينها او يتعب في انشائها، ثم منح تيمور لحفيده الشيخ علي عدد كبير من الاسرى الاتراك الذين اصبحوا من مريدي هذه الاسرة واتباعها المخلصين وكونوا قوتها الضاربة، كما اصبحوا عصب الحركة الصفوية كلها وعرفوا باسم (القرلباش) لاحقا، وبعد وفاة خوجة علي عام ١٤٢٧ أو ١٤٢٨ في فلسطين وهو عائد من اداء فريضة الحج، تولى ابنه ابراهيم مشيخة الصفويين واستمر فيها لحين وفاته عام ١٤٤٧م وعندها تولى ابنه جنيد المشيخة.

تعد فترة جنيد (١٤٤٧-١٤٦٠) من المراحل المهمة في تاريخ الحركة الصفوية، ففي عهده اتخذت الحركة الصفوية طابعا سياسيا واضحا، فقد كان جنيد اول زعيم صفوي يعبر علنا عن طموحه في ان يصبح ملكا على(باد شاه) الى جانب كونه مرشدا روحيا للصفويين، ولتحقيق ذلك نظم جنيد الحركة الصفوية على اسس عسكرية، وجعل اتباعه يظهرن مظاهر التقديس تجاهه الى حد العبادة.

وقد كان هذا الامر مثار قلق جيهان شاه اخر حكام دولة القره قوينلو في ايران، ولذلك اصدر أمرا الى جنيد بان يفرق اتباعه ويرحل عن اردبيل، وهدده بتدمير اردبيل ان لم يستجب لذلك، فترك جنيد اردبيل وامضى بضع سنين متنقلا في الاناضول وبلاد الشام الى ان دعاه حاكم الاق قوينلو اوزون حسن الى بلاطه في ديار بكر عام ١٤٥٦م، واصبحت علاقات الاخير عدائية مع القره قوينلو أيضا.

وقد امضى جنيد ثلاث سنين(١٤٥٦-١٤٥٩)م في بلاط اوزون حسن وتزوج من خديجة بيكوم شقيقة اوزون حسن، ومن هنا حاول جنيد استرداد اردبيل سنة ١٤٥٩م، وعندما اخفق في ذلك توجه بقوته لقتال الشراكسة، ولكنه قتل في اذار ١٤٦٠م على يد حاكم مقاطعة شيروان، الواقعة قرب مدينة باكو جنوب القفقاس، عند مروره (اي جنيد) بأراضيه شيروان متوجها لقتال الشراكسة، واستمر التحالف بين الصفويين والاق قوينلو في عهد الشيخ حيدر الذي تولى زعامة الحركة الصفوية بعد مقتل ابيه جنيد، وعزز حيدر هذا التحالف بزواجه من ابنة اوزون حسن، وفي عهد حيدر اتخذ الصفويون غطاء رأس مميز لهم يسمى (تاج حيدري) وهو عمامة حمراء ذات ١٢ طية(لفة) ترمز الى الائمة الاثني عشر، ومن هنا كانت تسمية الصفويين بـ (القرلباش)

وهي تسمية تركية معناها الرؤوس الحمراء دلالة على لبس العمامة الحمراء، ومع ان مدلول القزلباش اختلف من وقت لآخر ومن منطقة لأخرى الا انها استخدمت عموما للدلالة على القوة العسكرية الصفوية المؤلفة من القبائل التركمانية.

وتشير الروايات الصفوية الى السبب في لبس هذه العمامة، هو ان حيدر شاهد الامام علي بن ابي طالب(ع) في المنام وقد صنع له عمامة من الصوف الاحمر بها اثنا عشر لفة، وقد وهب السلطان حيدر عمامة من هذه العمام لكل واحد من اتباعه ومريديه او طلب منه عملها ولبسها، وبهذا تميزت هذه الجماعة او الفرقة الصوفية بهذا الزي المميز، وقد اصبحت هذه الفرقة في عهد حيدر جماعة مستقلة، وقد وافق اوزون حسن على هذا الاستقلال والانفراد بلبس عمامة مميزة للجماعة تميزها عن سائر الناس، وقد اخذ التحالف بين الصفويين والاق قوينلو يضعف تدريجيا بعد نجاح الاق قوينلو في القضاء على دولة القره قوينلو، ومن ثم توليتهم حكم مناطق مهمه في ايران بوفاة اوزون حسن سنة ١٤٧٨م انتهى التحالف تماما.

وتفسير ذلك ان الاق قوينلو صاروا، بعد تولي مقاليد الامور في ايران، هدفا للمطامع السياسية والعسكرية للأسرة الصفوية التي كانت قد عادت الى اردبيل، ومن جهة اخرى ادرك الاق قوينلو ان شأنهم في ذلك شأن القره قوينلو سابقا، من حيث الابعاد السياسية للحركة الصفوية ولذا عملوا على محاصرتها بغية القضاء عليها.

ولما توفي اوزون حسن وخلفه ابنه السلطان يعقوب (١٤٧٨-١٤٩٠)م منع الناس من لبس العمام الحمراء وتوعد من يلبسوها بأشد العقاب، ولم يجد حيدر مفرا من ترك اردبيل والخروج الا بدعوى الجهاد في سبيل الله ونشر الاسلام في ديار الكفار، فغزا الكرج مرتين عامي ١٤٨٣ و١٤٨٧ لتأمين موطئ قدم له أو غنائم تساعد في تموين جيشه بعد ان حصل على اذن خليل حاكم شروان التي تقع في طريق زحفه الى بلاد الكرج، ثم طمع بالاستيلاء على شيروان، بحجة الثأر لمقتل ابيه جنيد الذي قتله حاكم شيروان من جهة اخرى.

كان هذا اول دليل على انهيار التحالف بين الطرفين بوقوف الاق قوينلو من الصدام المسلح الذي حدث بين حيدر، وحاكم شيروان فقد دعم الاق قوينلو حاكم شيروان، وسارع السلطان يعقوب بإبلاغ حاكم شيروان بخروج حيدر اليه، ولم يكتف بهذا بل ارسل جيشا لمساعدة شيروان من اجل القضاء على حيدر، وكان هذا الدعم عاملا حاسما في انتصاره على الصفويين ومقتل حيدر في ميدان المعركة في تموز عام ١٤٨٨ .

تكمن اهمية الشيخ حيدر في انه اخرج الحركة الصفوية من طورها الديني الى طورها العسكري بعد ان نظم مريديه تنظيما عسكريا جيدا بعد مقتل حيدر بوقت قصير تجمع عدد كبير من اتباع الصفويين في اردبيل حول ابنه سلطان علي(١٤٨٨-١٤٩٤) وقد جاء قسم من هؤلاء لتنهنته بتولي قيادة الحركة الصفوية، والقسم الاخير لحثه على الانتقام لمقتل ابيه.

وعندما وصلت هذه الانباء مسامع السلطان يعقوب حاكم الاق قوينلو شعر بالقلق وارسل قوة عسكرية الى اردبيل الفت القبض على السلطان علي واخويه ابراهيم واسماعيل، وارسلهم الى سجن في قلعة اصطخر في شيراز جنوب ايران حيث امضوا هناك قرابة اربع سنوات ونصف من اذار ١٤٨٩ لغاية آب ١٤٩٣م، كان اسماعيل، مؤسس الدولة الصفوية فيما بعد، اصغر الاخوة سنا ولا يتجاوز عمره السنتين.

وفي آب ١٤٩٣ اطلق رستم بن مقصود بيك، سراح سلطان علي واخوته لكي يستفيد من دعم الصفويين له، بعد ان ألت اليه مقاليد الامور في دولة الاق قوينلو(١٤٩٢-١٤٩٧)م واشراكهم في صراعه ضد منافسه على السلطة بايسنقر بن سلطان يعقوب، وقد حصل رستم

على دعم من الصفويين فعلا، وقد خاض السلطان علي حربا على بايسنقر وتمكن من قتله عام ١٤٩٢م لذا فقد كافأ رستم بن مقصود الشيخ سلطان علي واستقبله في عاصمته بالترحاب، وسمح له بالعودة الى اردبيل ليتولى رئاسة مريديه.

ولكن مع دعوة سلطان علي الى اردبيل وتجمع عدد كبير من اتباعه فيها، صار رستم يشعر بالقلق من احتمال تهديد الصفويين لحكمه في نهاية المطاف، لذا القى القبض على سلطان علي واخوانه مره اخرى عام ١٤٩٤م وارسلهم الى مدينة خوي الواقعة شمال غرب بحيرة أورميه لمنع اي اتصال بينهم وبين اتباعهم، وقرر رستم في نهاية الامر التخلص من سلطان علي وخطط أيضا للقضاء على اتباع الصفويين ومؤيديهم في تبريز و اردبيل.

وعندما علم سلطان علي بخطط رستم هذه هرب مع اخوته واتباعه المقربين من خوي متجها الى اردبيل ولما كان سلطان علي يشعر بعدم الامان فقد اوصى بان يكون اخوه اسماعيل خلفا له وهو في طريقه الى اردبيل، وارسل اسماعيل مع سبعة من اتباعه المختارين الى اردبيل امامه، وكانت مخاوف سلطان علي وتوقعاته في محلها اذ سرعان ما فاجأته قوه من الاق قوينلو وقتلته، اما اسماعيل فقد نجح في الوصول الى اردبيل بسلام، ومن هناك نقله اتباعه الى مدينة لاهيجان في مقاطعة كيلان لتجنب حملة تفتيش عنه قام بها الاق قوينلو في اردبيل من منزل الى منزل.

وفي لاهيجان وفر له حاكمها، كاركيا ميرزا علي، الرعاية والحماية ورفض عدة طلبات من الاق قوينلو لتسليمهم اسماعيل الصفوي. ومع ان رستم حاكم الاق قوينلو خطط لمهاجمة لاهيجان ومقاطعة كيلان الا ان المنازعات الداخلية بين الامراء والاق قوينلو منعتهم من ذلك، وقد امضى اسماعيل حوالي خمس سنوات (١٤٩٤-١٤٩٩)م في لاهيجان، وقد عين كاركيا ميرزا علي له مدرسا هو مولانا شمس الدين لاهيجي ليعلمه القران الكريم واللغتين العربية والفارسية.

ومع انشغال امراء الاق قوينلو بمنازعاتهم الداخلية تهيأت الفرص لاتباع اسماعيل بالذهاب اليه حيث بقي قسم منهم في لاهيجان، وعاد القسم الاخر الى مناطقهم لمواصلة الدعاية للصفويين فيها، وكان هؤلاء الاتباع يدعون اسماعيل بلقب (مرشدي كامل) بوصفه زعيما روحيا لهم وبلقب (بادشاه) اشارة الى قبولهم اياه بوصفه زعيما دنيويا، في وقت كان دولة الاق قوينلو تسير نحو الانحلال فقد برز ثلاثة امراء يتصارعون على السلطة وهم مراد بن يعقوب، ومحمد ميرزا واخوه الوند ميرزا بن يوسف بيك، وقد تمكن الوند ميرزا من التفرد بالسلطة بعد سجنه السلطان مراد، وارتقى عرش الاق قوينلو (١٤٩٧-١٥٠٠)م ومع ظهور بوادر انحلال دولة الاق قوينلو بسبب المنازعات الداخلية قرر الصفويون التحرك مرة اخرى، وفي اقل من عام كان اسماعيل واتباعه قد انتقموا من حكام مقاطعة شيروان، ثم تحركوا صوب اذربيجان حيث انزلوا هزيمة ساحقة بجيش الاق قوينلو الذي يقوده الوند ميرزا في موقعة (شورور) قرب نخجوان في ربيع عام ١٥٠١م.

وفي صيف ذلك العام دخل اسماعيل مدينة تبريز وتوج ملكا على ايران متخذاً لقب (شاه) مع ان سلطته كانت لا تتعدى حدود اذربيجان. وخلال السنوات القليلة اللاحقة بسط اسماعيل الصفوي سيطرته على معظم انحاء ايران التي دخلت مرحلة جديدة من تاريخها، زقد امضى الشاه اسماعيل السنوات العشر الاولى من حكمه في بسط سيطرته على ايران والتوسع على حساب المناطق المجاورة، وكانت قوة الصفويين تزداد باطراد في هذه الاثناء بسبب تدفق تركمان الأناضول الى ايران بعد ان بلغتهم انباء انتصارات الشاه اسماعيل وتوزيعه الغنائم بسخاء على اتباعه، وقد وجه الشاه اسماعيل اهتمامه أولا نحو القضاء على بقايا قوات الاق قوينلو، وكان السلطان يعقوب في اعقاب هزيمة غريمه السابق الوند ميرزا، قد اعلن نفسه شاها عام ١٥٠١م على فارس وخوزستان والعراق، الا انه دحر امام الشاه اسماعيل في معركة قرب

مدينة همدان عام ١٥٠٣ م، وبذلك ضمن اسماعيل السيطرة على وسط وغرب ايران، ثم اخضع مقاطعات مازندران وجرجان على بحر قزوين ومدينة يزد في عام ١٥٠٤ م كما الحق ديار بكر بدولته وامن حدوده الغربية بين سنتي ١٥٠٥-١٥٠٧ م.

اما سلطان الاق قوينلو مراد فقد توجه الى شيراز ومنها توجه الى بغداد محاولا اعادة الحياة الى امارته، وحاول مصالحة الشاه اسماعيل، وارسل اليه وفدا يعرض عليه ان يبقى في بغداد ويدفع جزية للشاه، الا ان اسماعيل لم يسمح للوفد بالوصول اليه وامر بذبحهم جميعا، قضى السلطان مراد في العراق خمس سنوات يشويها الذعر والقلق بسبب تصاعد واتساع قوة خصمه اسماعيل الذي بسط حكمه على كل الهضبة الايرانية ثم وجه نظاره الى العراق.

٢- احتلال بغداد ١٥٠٨

كان السلطان مراد بن يعقوب يدرك عجزه عن الوقوف وحده امام اطماع الشاه، ولذلك استنجد بإمارة ذي القدر في الأناضول ولكنها كانت تعاني الخور والضعف في اواخر ايامها، لهذا باءت محاولات الاسناد التي قدمها اميرها علاء الدين في ١٥٠٢-١٥٠٧ بالفشل، وتعرضت اراضي الامارة في الاناضول الى تخريب شامل ومذابح مروعة ارتكبتها قوات الشاه. فاتجه السلطان الى قانصوه الغوري اخر سلاطين المماليك في مصر والشام الذي كان يدرك خطورة استيلاء الشاه اسماعيل على العراق،

وقد اتخذ الغوري بعض الاجراءات الاولية لإعداد حملة ضد الشاه، وفرض الضرائب على اهل دمشق لتمويل كتائب المشاة التي ستتحشد في حلب استعدادا لمجابهة الشاه. ولكنه في واقع الامر، لم يكن مستعدا عمليا لنجدة مراد بن يعقوب وانقاذ العراق. فالظروف العامة التي كانت دولة المماليك تواجهها حينذاك لم تسمح للسلطان الا بمناورات عسكرية فقط دون ان يتورط في حرب حقيقية على الشاه، فالتهديد البرتغالي للبحار العربية جعل السلطان يهتم به اهتماما كبيرا، ولم فتح جبهة جديدة غير مستعد لها، وكان حاكم العراق يواجه مصير بمفرده.

ويعود تطلع الشاه لاحتلال بغداد الى عاملين هما:-

١- **العامل السياسي:** ان الاستحواذ على بغداد قلب العالم الاسلامي يعطي للشاه اسماعيل

مكانة رفيعة لدى المسلمين، طبقا للطموحات التي كانت تساوره.

٢- **العامل الاقتصادي:** ان خصب العراق الزراعي يمكن ان يسد الكثير من حاجات سكان

ايران، فضلا ان الشاه اراد السيطرة على الطريق التجاري المار بديار بكر والموصل

والذي يقطع عمق العراق الى الخليج العربي عبر بغداد، وتعد الموصل رأس الطريق

الطبيعي لشمال العراق عبر اتصالها بأقاليم الاناضول وبلاد الشام.

استطاع الشاه اسماعيل التقدم الى بغداد بجيش كبير، وارسل في المقدمة فرقة من الفرسان القزلباش يقودها حسين لاله، وبالرغم من ان حاكم بغداد استعد لمواجهة تلك القوات، الا انه وجد نفسه اضعف من ان يستمر في الدفاع عن المدينة التي لا تربطه بها رابطة قوية، لا سيما بعد انتشار الروح الانهزامية بين قواته التي اربعتهم انباء الفطائع التي كان ينزلها الشاه اسماعيل بالقوى التي تقف امامه، ولذا سارع الى الفرار قاصدا مدينة حلب ومن هناك اتجه الى ديار بكر تقدمت قوات الغزو من كرمانشاه الى خانقين.

وما ان علم باريك بيك برناك والي الاق قوينلو على بغداد، بزحف القوات الصفوية حتى غادر المدينة فدخلتها القوات الصفوية من دون قتال، وخطب للشاه اسماعيل على منابرها، كما سكت النقود باسمه دلالة على ضمها الى ممتلكاتها الدولة الصفوية. كان اول عمل قام به هو زيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء، ونظم الشاه اوضاع العراق، فعين خادم بيك واليا عليه ومنحه لقب خليفة الخلفاء، وبالرغم من ان الشاه دخل بغداد سلما، الا انه امر بمذبحة راح ضحيتها عدد كبير من السكان دون مبرر، وقد غادر الشاه بغداد الى الحويزة وكانت تحكمها الامارة المشعشعية في عهد الامير فياض فاشتبك معه وقتله واستولى على املاكه عام ١٥٠٩م غير ان الاحتلال الصفوي للعراق لم يدم طويلا، ولم تترك الدولة الصفوية اي اثر مهم في تاريخ العراق السياسي والاقتصادي لأنها كانت لا تزال في طور التأسيس فطلت جميع الانظمة والمناصب الادارية السابقة في العراق قائمة، وبقي النظام الزراعي في ضمور وتخلف.

وكل ما حدث بعد الاحتلال هو تعيين بعض القزلباش او الموالين لهم في المناصب الرئيسية، وحتى هذه التعيينات كانت تجري على نحو مرتجل واضح. وكان مما يلفت النظر حقا من الزاوية الادارية خلال مرحلة الاحتلال الصفوي للعراق، واطلاق الشاه اسماعيل لقب (خليفة الخلفاء) على الوالي الذي عينه على بغداد، وهو امير ديوانه خادم بك طالش الذي سماه ابا المنصور، واستحدث هذا الشاه منصب مساعد الوالي واسنده الى احد العراقيين وعد ذلك خطوة توفيقية. كما سك الشاه اسماعيل عملة نقدية عثر على بعض قطعها في العراق. ومن اهم الاثار العائد للصفويين جامع الكواز في البصرة الذي امر بتشبيده الشيخ سري بن الشيخ حسن العباسي عام ١٥١٤م وجدد بناؤه الشيخ عبد القادر الكبير العباسي عام ١٥٢٣م كما قام الشاه اسماعيل الصفوي بإعادة تجديد المشهد الكاظمي، وقد شمل التجديد توسيع الروضة وتبليط الاروقة بالرخام، وتزيين الحرم واطرافه الخارجية بالطابوق الكاشاني ذي الآيات القرآنية والكتابات التاريخية، كما امر بأن تكون المآذن اربعا بعد ان كانت اثنتين، وقام بتشبيد مسجد كبير في الجهة الشمالية للحرم متصل به، واحال امر التنفيذ الى امير الديوان خادم بيك

المحاضرة الخامسة

حملة سليمان القانوني لاحتلال العراق ١٥٣٤م

شهدت العلاقات العثمانية-الصفوية ازمة في عهد السلطان سليمان القانوني، وكان العثمانيون منشغلين بعملياتهم العسكرية في اوروبا ولم يكن بوسعهم فتح جبهة ثانية ضد الصفويين في نفس الوقت فكان لا بد من تعليق العمليات العسكرية في اوروبا للتفرغ من اجل التعامل مع الاحداث في الجبهة الجنوبية الشرقية للدولة طالما اصبحت الحرب مع الصفويين حالة لا يمكن العدول عنها، وقام السلطان سليمان القانوني بحل المسائل العالقة في اوروبا وذلك عندما تبوء الشاه طهماسب عرش بلاد فارس، حيث كانت بداية الحرب العثمانية-الصفوية، عندما خاض اولامه تكلو وهو احد المنشقين عن الدولة الصفوية معركة ضد شرف خان المنشق عن السلطنة العثمانية وتمكن من التغلب عليه وقتله في ٢١ تشرين الاول سنة ١٥٣٣م.

وعلى أثرها حشد ابنه شمس الدين قواته وتقابل مع (اولامه تكلو) احد المنشقين الا انه ادرك عدم قدرته على مقاومته فاتصل بالوزير الاعظم ابراهيم باشا معلنا طاعته للعثمانيين ولهذا عهد اليه ابراهيم باشا بتليس ووعده اولامه بتقليده وظيفة اخرى، وكان الاجراء الذي اتخذه الوزير الاعظم صائبا، اذ لو قام بتوجيه ادارة بتليس الى شخص اخر من غير الاسرة التي تديرها

بالوراثة ، فان الامراء الاكراد الذين كانوا يديرون اقاليمهم بنفس الطريقة سيفقدون الثقة بالحكومة العثمانية ويوجسون خيفة ويستغلون اي فرصة سانحة لإعلان تبعيتهم وولائهم للدولة الصفوية.

كان شاه ايران طهماسب قد ورث عن ابيه اسماعيل عداءً مستحكماً مع قبائل الاوزبك في اقصى الشرق وكان يقودهم عبيد خان ١٥٣٩-١٥٤٠ منطلقاً من بلاده من جهة، ومع العثمانيين المتناخمين له في الغرب من جهة اخرى، فبادر اولاً الى محاربة الاوزبك ، الا ان السلطان العثماني سليمان القانوني ١٥٢٤-١٥٦٦ استغل حرب الشاه مع الاوزبك واراد السيطرة على طريق تبريز التجاري لذا ارسل (اولامه تكلو) على رأس قوة صغيرة الى اطراف اقليم أذربيجان لاستطلاع الاوضاع العسكرية ولاستمالة سكان الاقليم الى جانب الدولة العثمانية قدر المستطاع. ثم اصدر السلطان اوامره الى صدره الاعظم ابراهيم باشا في تشرين الاول ١٥٣٣ بالتوجه هو الاخر على راس جيش كبير قدر ب(١٠٠,٠٠٠) مائة الف مقاتل للالتحاق باولامه. وكان الصدر الاعظم ابراهيم باشا قد انطلق من اسطنبول صوب المنطقة ووصل الى حلب في كانون الاول ١٥٣٣ وامضى فصل الشتاء فيها وقبل ان يخطو ابراهيم باشا قام بجمع المعلومات المتعلقة بتحركات الشاه والاضاع السائدة في بغداد وارجائها وكلف بهذا سليمان باشا الذي عين في ايالة الاناضول بعد عام من عزله من ولاية ديار بكر ١٥٣٢ م.

وبعد ان اجمع سليمان باشا بعض المعلومات، ارسل رسالة الى ابراهيم باشا اشار فيها الى ان (محمد خان تكلو) عين حاكماً على بغداد (ذوالفقار خان) وجمع مؤناً تكفيه من ٣-٤ سنوات ويسعى الى تحصين موقعه، وان علاقته مع العشائر العربية في ارجاء بغداد غير جيدة وعدائية وهو يقيم في داخل بغداد نفسها، كما اورد سليمان باشا في رسالته انه طلب من امير سنجق الموصل احمد بك ومن حسين بشري (وهو عربي كان يدير اقطاعاً للسلطان) طلب منهما احاطته علماً بالوضع في ارجاء بغداد، وقام حسين بشري بالتوجه مع جمع من الرجال الى ارجاء (تاووق) داقوق في كركوك واغاروا على الصفويين المتمركزين هناك وتغلبوا عليهم واسروا واحدا منهم وارسلوه الى سليمان باشا، وازاء هذا الوضع اوصى سليمان باشا القائد العثماني ابراهيم باشا، بالتاني والتريث لحين تمكنه (أي سليمان باشا) من الذهاب الى الموصل والحصول على اصح الاخبار ليتسنى له اتخاذ التدابير اللازمة على ضوءها.

كان سليمان باشا يرى ان بغداد قلعة حصينة وينبغي فتحها عن طريق بذل الامان لأهلها وإلاً ينبغي تجهيز الجيش بمعدات من(٣٠٠٠-٤٠٠٠) فأساً ومثلها معولاً وهناك احتمال كبير ان ابراهيم باشا امضى الشتاء في حلب اثر هذا التقرير، وقرر ابراهيم باشا عقب ذلك، بالتوجه الى بغداد مثلما كان مقرراً في السابق الا انه وباقتراح من الدفتر دار اسكندر باشا قصد ديار بكر في ايار ١٥٣٤ وقد وصل الصدر الاعظم الى مدينة (آمد) وقد مكث فيها ستة اسابيع للتموين ثم توجه بعدها الى قلعة (اونيك) ثم الى قلعة (وان) ومن ثم الى (عادل جواز) ومن الاخيرة توجه الى اطراف اذربيجان، حيث امر فيها اولامه وجيشه بالتقدم الى اردبيل، واما هو فقد زحف في الوقت نفسه على مدينة تبريز.

ولما سمع الشاه طهماسب بتوغل اولامه في اراضيه وعلم بنجاح ابراهيم باشا باقتحام تبريز، بادر الى عقد صلح مع الاوزبك وارسل فرقة من (القرلباش) لمواجهة الحملة العثمانية ولما علم ابراهيم باشا بالأمر بعث الى السلطان سليمان يستقدمه على جناح السرعة وذلك لعجزه على مواجهة الشاه طهماسب لوحده، وقد استجاب السلطان لطلب صدره الاعظم واعد جيشاً في ايار ١٥٣٤ قاصداً تبريز، وفي تشرين الاول وصل مصيف (اوجان) في اذربيجان فاستقبله ابراهيم باشا، ولما كان في نية السلطان سليمان مواجهة طهماسب وجها لوجه غادر مصيف اوجان في طريقه الى (سلطانية) ومنها يتقدم الى قزوین عاصمة الدولة الصفوية آنذاك لمواجهة الشاه في عقر داره، الا ان غزارة الامطار والتلوج الكثيرة التي تراكمت في الطرقات ادت الى هلاك

عدد كبير من رجال الحملة العثمانية ، فولدت تدمرا بين افراد الجيش ولكن رغم ذلك استطاع السلطان قيادة جيشه باتجاه قزوين.

وقد نشرت انباء زحفه، بان دب الهلع في صفوف الجيش الصفوي ولاسيما أولئك المتمردين منهم، حيث مال فريق منهم الى تأييد السلطان سليمان، كما اعلن بعضهم العصيان في وجه الشاه، الا ان سوء الاحوال الجوية خدمت الشاه، والشيء الذي لم يستطع الشاه فعله في مواجهة جيش السلطان سليمان فعلته ظروف الطبيعة، حيث ان الامطار والثلوج الكثيرة التي تراكمت خلفت الاحوال في الطرقات، وادت الى غوص العربات والمدافع فيها فأثر هذا الوضع على نفسية الجيش العثماني وأزداد في قلقه وتذمره واضطرابه لدرجة ان فريقا منه تجرأ وطالب العودة الى الوطن، ونتيجة ذلك اضطر السلطان الى مغادرة مدينة السلطانية والرجوع الى اذربيجان ويترتب على ذلك مواجهة القحط والمجاعة لذا قرر التوجه الى الموصل عن طريق شهرزور لقضاء فترة الشتاء والعودة بعدها الى مواجهة طهماسب في بلاده ثانية عند حلول فصل الربيع.

وفي تلك الاثناء وصل وفد من الحامية الفارسية في بغداد يحمل اليه مفاتيح المدينة علما ان حاكم بغداد محمد خان كان قريبا من أولامه تكلو، ومن المعروف ان الاوضاع في بغداد كانت قد اضطربت نتيجة فزع الحامية الفارسية حيث كانت اخبار الجيش العثماني تتوارد الى العراق عن طريق رسائل كان يبعثها باستمرار اولامه تكلو والصدر الاعظم العثماني الى بغداد بقصد اضعاف معنويات حاكمها، وقد ادت تلك الرسائل الى انقسام ابناء قبيلة تكلو في بغداد الى مجموعتين احدهما تؤيد الشاه والثانية تروم التعاون مع الدولة العثمانية، وقد حاول محمد خان اقناع الفريق الثاني بالعدول عن موقفه والتعاون معه لصد الهجوم المتوقع والدفاع عن بغداد وقلعتها بعد ان وصلت رسالته سليمان القانوني وهي تتضمن الاغراء والتهديد، الا ان الفريق المقصود أبا ذلك، وفي تلك الاثناء وصله رسول من الشاه يدعوه حاميته للتوجه الى قزوين، ولما عرض الامر على قبيلته، رفضت الدعوة بل تحصنت في المدرسة المستنصرية، واعلنت التمرد ضده وجاهرت بالولاء للدولة العثمانية ولما لم يكن في استطاعته الدفاع عن بغداد، كما لم يكن في مقدوره مغادرتها وحده اتصل بقيادة المعارضين وتظاهر امامهم بأنه قد غير رأيه واخبرهم بموافقتهم على تسليم بغداد الى السلطان، وطلب منهم تنظيم وفد من زعمائهم للذهاب اليه واستقدامه فرحب القادة المعارضون بقراره، وهرعوا الى السلطان فرحين لاستدعائه، وعندئذ انتهز خلو المدينة منهم فجمع ماله وحاشيته وعبر نهر دجلة ليسلك الطريق البري فارا الى البصرة.

وقد تسلم سليمان القانوني مفاتيح بغداد من وفد قبيلة تكلو وكان آنذاك على مشارف سهل (ماهي دشت) بالقرب من كرمان في طريقه الى العراق، لذا تحرك على الفور بهدف الوصول الى بغداد وبهذا مُهد للسلطان سليمان فتح بغداد دون قتال في كانون الاول ١٥٣٤ ودخلها بصحبة حاشيته فقط في المدينة ، لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفاً من عدم استطاعته كبح جماحه وتلافيا لأعمال النهب، ولو اخذ بنظر الاعتبار ما صاحب جيش سليمان من مجاعة عبر الطريق الشاق الطويل وما عاناه من كثرة هطول الامطار وتراكم الثلوج لاستطعنا تصور حالة بغداد لو سمح للجيش بدخولها، لذا سلمت المدينة من السلب والنهب والهدم، وهذا ما لم يعهده سكانها في تلك الايام من المحتلين.

ومن الجدير بالذكر ان مدينة بغداد كانت عند دخول السلطان سليمان القانوني محاطة بسور على شكل قوس يتخلله حوالي (١٥٠) برج وفيه اربعة ابواب، يدعى الشمالي منها باب الامام الاعظم، والجنوبي يسمى الباب المظلم، والشرقي الباب الابيض، والباب الغربي يطلق عليه باب الجسر، الذي كان يؤدي الى قلعة الطيور في الجانب الغربي من(الكرخ) وكان يحيط بالسور

خندق عميق، اما المدينة فكانت خربة لا اثر لدور العلم والمدارس والمساجد التي اشتهرت بها في العصور السالفة، فالمدرسة المستنصرية مثلا كانت قد تحولت الى مخزن للبضائع في الوقت الذي اصبحت المدرسة النظامية اثرا بعد حين.

وخلال مكوث السلطان في بغداد قام ببعض الاعمال العمرانية، منها توسيع مرقد الامام ابي حنيفة وبناء قبة عليه ومدرسة وجامع وزاوية الى جواره وسور حوله ووضع حامية بقربه لحماية زواره ومن جهة اخرى قصد السلطان مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وامر المعمار العثماني (سنان باشا) بتشيد قبة للمسجد، فانجز هذه القبة البيضاء ودار السبيل، وفي اطراف بغداد زار السلطان مرقد الائمة والمشايخ والاولياء كما قصد العتبات المقدسة في الكاظمية وكربلاء والنجف.

ومن اعماله الهامة محاولة تعميق نهر الحسينية الذي يروي مدينة كربلاء وبساتينها، فضلا عن امره ببناء سدة ترابية لإنقاذ المدينة من الغرق الذي كان يصيبها في سنوات فيضان نهر الفرات وسمية السدة باسمه (روف السليمانية) نسبة الى السلطان سليمان، ومن كربلاء سلك الطريق الصحراوي الى النجف لزيارة مرقد الامام علي ابن ابي طالب (ع) ومنها قصد الكوفة ثم توجه الى الحلة ثم عاد الى بغداد وخلال مكوثه فيها امر بإصلاح اسوار وابراج المدينة وقلعتها، وقد أستبدل باب السلطان الاثرية بباب خشبية من الصاج المضرب بالمسامير الحديدية وبيض واجهتها بالحص وبذلك ازال ما كان عليها من كتابة اثرية.

ومن جهة اخرى قسم البلاد الى وحدات ادارية وادخل نظام الاقطاع الذي كان معروفا في المقاطعات الاخرى من دولته، ومنح التيمار والزرعات الى الجنود والقادة الذين اظهروا البطولة في الحملة الخيرة على بلاد فارس والعراق كما نظم سجلات للأملك الخاصة والاقواق واولى بغداد الى سليمان باشا وعقد عدة اجتماعات للديوان وزود الحاكم الجديد بحامية من حوالي الف جندي مزودين بالأسلحة النارية و ١٠٠٠٠ الف فارس، وتموين كاف للدفاع عن المدينة ان اقتضت الضرورة امام هجمات الشاه طهماسب المتوقعة في المستقبل.

لقد اخضع الجهاز الاداري بعد احتلال السلطان سليمان القانوني للعراق لعملية اعادة تنظيم شاملة، فاستحدثت ولايات بغداد والموصل بعد فصل الاخيرة عن ولاية ديار بكر عام ١٥٣٤ كما تطلب الامر واقامة نظام حقوقي جديد وسن قوانين (نامة) محلية في الموصل وتكريت وبغداد وغيرها من المدن بهدف القضاء على الظلم والاستبداد.

وفي نيسان غادر سليمان القانوني العراق وبقيت في البلاد قوات عثمانية بلغ عددها نحو (٢٢٠٠٠) الف مقاتل تضم الفرسان والخيالة (السباهية) ولو اضيفت اليها الفصائل المسلحة التابعة للأمراء الاكراد والبدو لبلغت هذه الجيوش درجة عالية من القوة، فتحول العراق في النصف الاول من القرن السادس عشر الى اقوى جسر للقوة العسكرية العثمانية في الشرق. وفي نهاية عام ١٥٣٤ عاد السلطان الى اسطنبول، وعندما وصل الى مكان يدعى (كوك تبه) سمع بان الشاه طهماسب الاول قد بعث برسالة الى امير اربيل عز الدين شير، مما اثار شكوك السلطان العثماني فامر بقتله، وعهد بحكم اربيل الى الامير اليزيدي حسين بك الداسيني، ثم اضاف السلطان العثماني اماره سوران بكاملها الى اربيل وسلم ادارتها الى الامير اليزيدي المذكور بموجب فرمان ١٤ شباط ١٥٣٧م وثبت السلطان سليمان قانون- نامه بغداد، اعلن انه لا يسمح لاحد بعد هذا القانون ان يعامل سكان المدن والقرى خلافا للقانون والشريعة الاسلامية

وكلف قاضي (وبكلر بكي بغداد) اعلام الجميع بذلك، وللتأكد من ذلك امر السلطان بقراءة (قانون- نامه) في جميع المدن والقرى ومناطق التجمعات السكنية، ووضعت في الوقت ذاته

مبادئ لفرض الضرائب واستغلال الارض كما اجري مسح تفصيلي ونظمت الدفاتر سجلت فيها كل التفاصيل المتعلقة بالمقاطعات والاملاك.

المحاضرة السابعة

الموضوع/ الصراع العثماني الصفوي ١٦٢٣ - ١٦٣٨

رغم المعاهدات المعقودة بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية الا ان ذلك لم يمنع الطرفين من استئناف الحرب، حيث هاجمت القوات العثمانية الاراضي الايرانية عام ١٦١٥م اما الصفويين فقد هاجموا العراق عام ١٦١٦ ونهبت قوات صفوية مدينة مندلي، غير ان باشا بغداد استعادها بشدة وسرعة، وسرعان ما تم توقيع معاهدة جديدة بين الدولتين عرفت بمعاهدة سراب في ٢٩ ايلول ١٦١٨ التي اكدت بنود معاهدي اماسيا واسطنبول الثانية.

بدت العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية اثر اتفاقية سراب وكأنها تسير نحو الاحسن، لكن الشاه الذي يبدو انه لم يكن راضيا تماما على هذه المعاهدة، ظل يتحين الفرص للانقضاض على الدولة العثمانية، وسرعان ما سنحت له الفرصة لتنفيذ سياسته.

فقد سعى الشاه الى اضعاف الدولة العثمانية من خلال فرض حصار اقتصادي عليها ضمن مشروع اتفق على تنفيذه مع انكلترا، ويقضي بضرب البرتغاليين في هرمز وطردهم من الخليج العربي، وقد تم ذلك عام ١٦٢٣ فسيطر الشاه على هرمز واخذ يصدر الحرير منه الى اوروبا، على سفن تابعة لشركة الهند الشرقية الانكليزية، مما حرم الدولة العثمانية من الاستفادة من ضريبة المرور (الترانزيت) وصادف ذلك اضطراب الاوضاع داخل الدولة العثمانية، فقد حدثت اضطرابات داخلية انتهت باغتيال السلطان عثمان الثاني، واعادة تنصيب السلطان مصطفى الاول مرة اخرى عام ١٦٢٣ ولكن كانت الفرصة السانحة للشاه عباس الكبير لاستعادة العراق.

عندما حدث تمرد بكر صوباشي كان بكر صوباشي احد قواد الانكشارية في بغداد والذي كان تحت امرته عدد كبير من السكبانية وهم من فرق المشاة المحلية من رماة البنادق، فضلا عن (١٠٠٠) من العزب، وهم من فرق المشاة غير النظامية التي تتقدم الجيش العثماني اثناء الهجوم، كما كان تحت امرته (٤٠٠٠) من الانكشارية، وقيل ان عدد القوات التي كانت تأتمر بأمره بلغت (١٢٠٠٠) رجل، وكان الصوباشي هو الحاكم الحقيقي بينما لم يكن ليوسف باشا والي بغداد من السلطة الا الاسم وقد بدأ نفوذ بكر صوباشي بالتزايد منذ ١٦١٩ حيث ادى طغيان نفوذه الى نقمة كبار الانكشارية عليه، والذين كانوا ينتظرون الفرصة السانحة للتخلص منه، ووجدوا تلك الفرصة عام ١٦٢١ عندما خرج بكر الصوباشي على رأس ثلة من اتباعه الى منطقة الفرات الاوسط، بعد ان اناب ابنه محمد اغا بلوك بدلاً عنه في بغداد.

لقد تضاربت اراء المؤرخين حول سبب توجه بكر الصوباشي الى منطقة الفرات الاوسط، فالبعض يعتقد انه توجه الى الحلة لجباية الضرائب من الفلاحين الذين امتنعوا عن دفعها الى السباهية، في حين يرى فريق اخر من المؤرخين انه خاض صراعاً عنيفاً مع بعض كبار الانكشارية الذين لجأوا الى السماوة فأخذوا يحرضون الفلاحين في التمرد على السباهية، ومهما كان السبب فقد ادى ببكر صوباشي الى ان يخرج بجيش قوامه خمسة الاف من الانكشارية،

فوجد المعارضون لبكر صوباشي ان غياب خصمهم خير فرصة لهم للإطاحة به او ابعاده عن بغداد، وكان على رأس هؤلاء محمد اغا قنبر الذي اجتمع مع كبار الانكشارية واشراف المدينة ووضح لهم نوايا الصوباشي وانفراده بالسلطة ثم اعلن عن عزمه على التخلص منه ولكن انباء المؤامرة وصلت الى مسامع بكر صوباشي، فاسرع في العودة الى بغداد واول عمل قام به هو فرض حصاراً شديداً على القلعة، وامر بقصفها من جميع الجوانب، فقتل اثناء الحصار والي بغداد يوسف باشا، اذ اصابه برصاص عندما كان يصدر اوامره العسكرية الى المدافعين عن القلعة التي اخذت تعاني نقصاً في الذخيرة والعتاد، ولم يبق امام محمد اغا قنبر الا طلب الامان والاستسلام لبكر صوباشي، فسلم نفسه لخصمه الذي عامله بمنتهى القسوة والكرهية اذ وضعه واتباعه في قارب وامر بصب الكبريت والقار عليهم فاحرقوا جميعاً.

لقد اصبح بكر صوباشي بعد القضاء على التمرد الاخير سيد بغداد بلا منازع، فكتب الى الباب العالي ان ينعم عليه بباشوية بغداد لقضائه على التمرد الاخير وقبل ان يتلقى جواباً، وزع منشوراً مزوراً اعلن فيه انه اصبح والياً على بغداد، لكن الصدر الاعظم قره حسين باشا رفض طلب صوباشي ومنح حكم بغداد الى سليمان باشا والي ديار بكر فارسل هذا الى متسلمه علي اغا لاستلام الولاية، الا ان بكر صوباشي رفض مقابلة المتسلم، ولم يتورع بالرد عليه بقسوة ثم اخبره بان اهل بغداد ليسوا بحاجة الى وال جديد، فرجع علي اغا الى الباب العالي واخبر الصدر الاعظم بأمر صوباشي، فاصدر هذا امراً الى حافظ احمد باشا والي ديار بكر قيادة حملة عسكرية الى بغداد لتأديب الثائر صوباشي، فتوجهت الحملة التي ضمت قوات من مرعش وسيواس والموصل وكركوك نحو بغداد ووقف الصدر الاعظم في الموصل قليلاً منتظراً وصول قطعات عسكرية جديدة من اورفة وبيكات الاكراد في العمادية وامراء سوران ثم توجه الى كركوك، ومن هناك بعث بقوة استطلاعية مع سليمان باشا وبستان باشا ومعهما بعض البيكات من الاكراد ثم تقدم احمد حافظ متوجهاً نحو بغداد فخيم في شمال المدينة قرب الاعظمية، وقد حاول حافظ احمد باشا ان يستدرج بكر صوباشي الى الاجتماع معه غير انه رفض ذلك وبشدة واسمع الصدر الاعظم كلمات مهينة مؤكداً له انه سيبذل كل ما في وسعه للحفاظ بولايته.

اخذ صوباشي منذ اليوم الاول للحصار يباغت الجيش العثماني ليلاً ويلحق به خسائر فادحة حتى استطاع ذات مرة ان يفرق شمل الجيش العثماني الذي تراجعت بعض قطعاته الى ديالى، فجمع حافظ باشا جيشه المشنت وقيامه بهجوم عام على المدينة بعد ان قطع جميع الطرق الموصلة اليها بهدف فرض حصار اقتصادي شديد على المدينة، واذا كان الهجوم لم يتم فإن اثار الحصار بدت واضحة في المدينة التي بدت تعاني المجاعة القاتلة، واصبح هلاك المحاصرين في بغداد قاب قوسين او ادنى، مما حدا بالتمرد صوباشي ان يبعث الى شاه ايران عباس الكبير بواسطة حاكم لورستان حسين خان مفاتيح بغداد.

وفي الواقع ان الشاه كان يراقب التطورات العسكرية في بغداد عن كثب قبل اتصال بكر صوباشي حيث كانت الاستعدادات قد اتخذت قبل ذلك، فالحدود الشرقية كانت تشهد كل يوم اصطفاً مزيداً من القوات الفارسية فجاء طلب صوباشي بمثابة فرصة ذهبية لعباس الكبير الذي ارسل جيشاً من (٣٠٠٠٠) رجل بقيادة صفي قلي خان حاكم همدان. عقد حافظ باشا اجتماعاً حربياً بعد ان تأكد له اتصال صوباشي مع الشاه واحتمال قيام بكر بسك النقود باسم

الشاه، وعندما كانت المناقشات مستمرة حول كيفية حل هذه المشكلة. جاء رسول من القائد الصفوي قرجاي خان الى حافظ باشا زاعما ان بغداد اصبحت فارسية فرد حافظ باشا على الرسول بان هذه الارض ليست بفارسية ، وان العثمانيين يقومون بتأديب تائر من الثوار، فعاد الرسول مرددا كلمات التهديد بينما اصبح الهم الاول لحافظ احمد باشا بعد رجوع الرسول الفارسي، هو اقناع بكر صوباشي للعدول عن رأيه قبل فوات الاوان، فعرض عليه باشوية الرقة وعلى ابنه حكم سنجق الحلة، الا ان هذا العرض رفض بشدة من قبل بكر صوباشي، فاستمر الحصار على بغداد، غير ان حافظ باشا قرر في الاخير الخضوع للأمر الواقع وذلك بمنح حكم ولاية بغداد الى بكر صوباشي.

لقد كان قرار حافظ باشا بتوجيه الولاية الى بكر صوباشي قراراً صائباً كما كانت محاولة اخيرة لعدم التفريط بالمدينة اذ ليس بإمكانه الاستمرار في الحصار خاصة وان القوات الفارسية بدأت تقترب رويداً رويداً من بغداد، كما ان طلباته العسكرية لم تنل اهتمام المسؤولين في الباب العالي بسبب وصول علي كمانكش الى الصدارة العظمى والذي كان من اشد اعداء حافظ باشا. فبقاء بغداد بيد تائر على السلطان افضل بكثير من ان تكون ولاية فارسية . انسحب حافظ احمد باشا الى الموصل ومنها الى ديار بكر اما بكر صوباشي الذي ظن ان كل شيء اصبح على ما يرام بعد منحه الولاية، فقد استقبل وفدا من الشاه يطلب تسليم المدينة للشاه غير ان صوباشي رد بكل رقة على الرسول واعلن انه مستعد لتحمل نفقات الحملة الايرانية ولكن ليس من الممكن تسليم بغداد، لذا دهش الرسول من كلام صوباشي وهذا التحول العجيب في موقفه فعاد الى الشاه مرددا كلمات التهديد والوعيد، واخبر الشاه الذي كان قد وصل الى اطراف بغداد وفي صيف ١٦٢٣م فرض الجيش الصفوي حصاراً قاسياً على بغداد، وقيل ان الشاه عباس عرض على صوباشي باشوية بغداد مقابل اعلان تبعيته الاسمية للدولة الصفوية غير ان صوباشي قد رفض ذلك بشدة واعلن عن عزمه الدفاع عن بغداد حتى الرمق الاخير، كما ارسل رسائل الى الباب العالي والى حافظ باشا طالب فيها امداده بمعونات عسكرية للوقوف بوجه الهجوم الصفوي، غير ان هذه الرسائل لم تلق اذنا صاغية من لدن المسؤولين في الباب العالي. استمر الحصار الصفوي نحو ثلاثة اشهر، عانى اهل بغداد خلاله الامرين من جراء القحط الشديد والغلاء الفاحش حتى اكلوا الميتة ولحوم الدواب والكلاب، ولم يكن من المستغرب من هذا الوضع المزري ان يتسلل الى معسكر الشاه كل ليلة اتباع الصوباشي لينجو بأنفسهم من مخالب الموت المحتم. وقد تضاربت اراء المؤرخين حول دخول القوات الصفوية الى داخل بغداد، فالبعض يرى ان بكر صوباشي عجز عن مقاومة قوات الشاه فأرسل احد اتباعه يرحوه ايقاف القتال ويعرض عليه التسليم، في حين يرى مؤرخون اخرون ان محمد بن بكر صوباشي لما رأى اشتداد المجاعة اتصل بالشاه عباس وطلب منه الامان لقاء تسلّم القلعة له فرضي الشاه بذلك وامنه على نفسه واتباعه ووعدته بأن يجعله من خواص خدمه كما ووعدته بولاية بغداد في حالة فتح ابواب المدينة بينما رأى فريق ثالث من المؤرخين ان الصفويين اخذوا ينفذون في الليل الى القلعة كل اثنين على حدة، وما أن بآن الصبح حتى ملئت القلعة بالألاف من الجنود بينما تشير رواية اخرى الى حدوث تمرد داخل القلعة مما هيا الظروف الملائمة لاندفاع القوات الصفوية الى داخل القلعة في ليلة ٢٨ تشرين الثاني ١٦٢٣، فقام الجيش الصفوي بقتل كل من يصادفه من اتباع صوباشي والاف من السكان الابرياء بل قيل ان من سلم من القتل لم يسلم من التعذيب،

اما الامان الذي اعلنه الشاه فلم يكن الا خدعة، حيث امر الشاه باللقاء القبض على الجنود العثمانيين وتجريدهم من السلاح، اما مصير بكر صوباشي فقد قيل انه جيء به مكبلا الى مجلس الشاه الذي كان يضم ابن بكر صوباشي محمد، فامر الشاه بسجن بكر صوباشي وأخاه عمر ثم اعدمهما بعد ذلك وقيل ان الشاه وضع صوباشي واخاه عمر في زورق ثم امر بصب النفط عليهما فأحرقوا في الحال.

لقد ادت حركة صوباشي الانفصالية الفاشلة الى وقوع بغداد بيد الصفويين، ولم تقف الدولة العثمانية التي كانت تعتبر اعادة بغداد الى حظيرتها مسألة مهمة بالنسبة لها بموقف المتفرج ازاء هذا الاحتلال بل جردت الحملات الواحدة تلو الاخرى في محاولة لاسترجاع بغداد من الصفويين، وبعد احتلال الصفويين لبغداد توجهت قوة صفوية بقيادة قرجغاي خان الى كركوك، فاستسلمت له دون مقاومة بعد فرار واليها الى ديار بكر، ثم توجه قرجغاي خان الى الموصل وحاصرها ثم تمكن من دخولها رغم المقاومة الشرسة للمدينة نتيجة وصول تعزيزات جديدة من الشاه عباس، وقد بقيت الموصل تحت السيطرة الصفوية لمدة ثلاث اعوام حتى تمكن العثمانيون من احتلالها مجددا عن طريق حملة ارسلت بقيادة جركس حسن باشا.

المصدر

ايناس سعدي عبدالله، تاريخ العراق الحديث

الدكتور

عيد جاسم سليم

